محمد عزالدين التازي

محمد شكري

غواية العيش والكتابة

مذكرات

الكتاب: مُحَمَّد شكري غواية العيش والكتابة (مذكرات)

الكاتب: مُحَمَّد عزالدين التازي

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –
الجيزة- جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

التازي، مُحَمَّد عزالدين

مُحَمَّد شكري غواية العيش والكتابة (مذكرات)/ مُحَمَّد عزالدين التازي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٦٩ ص،١٨*٢١سم.

الترقيم الدولى: ٩ – ٥٦٠ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٤٣٨٩ / ٢٠٢٢

محمد شكري

غواية العيش والكتابة

(مذكرات)

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

كلمة

حينما تجرأت على استعادة لحظات من حياة الصديق الأديب الراحل مُحَمَّد شكري، وما عشناه معا، من مشترك حميم؛كنت أحتاط من أن أنزلق نحو استعادة جزء من ذاكرتي، وأن يبقى متذكر المشترك معه مجرد تعلة لأن أسرد بعض الفصول من حياتي، انطلاقا من فكرة موريس بلانشو التي تقول: "عندما أكتب عن الآخرين، فأنا أكتب عن نفسي". لذلك، فهذه المذكرات، وهي تحمل اسم مُحَمَّد شكري، تسعى إلى استحضار شخصه، ولحظات ومواقف عاشها معي أو مع غيري، فكنتُ شاهدا عليها، وبوحا باح لي به في أوقات عاش فيها قلقه الخاص.

مهما كان من تَحَلٍّ بالحياد والموضوعية في كتابة هذه المذكرات، فإنها تبقى موسومة برؤية كاتبها للمواقف والأحداث، وربما أيضا، بما يعني الدفاع عن شخص مُحَمَّد شكري ضد الصورة الزائفة التي حملها عنه البعض وروج لها حتى طغت على صورة مُحَمَّد الحقيقية وغدت متداولة بسبب ذيوع صيته والشهرة التي وصل إليها.

عندما أدافع عن شخص الأديب الراحل، فأنا أهدف إلى تصحيح ما أشيع عنه، لا بالكلمات وحسب، ولكن أيضا، باستعادة الكثير من المواقف التي عشتها معه، ولحظات البوح التي باح لي فيها، ومتابعة مسيرته الإبداعية ومحطاتها من كتابته ل"الخبز الحافي" إلى آخر ما كتب، وردود الفعل التي تولدت لدى جمهور قراء شكري وأصدقائه الكتاب وبعض الحاسدين والفضوليين.

ذكريات أستعيدها في هذه المذكرات، بعفويتها وبساطتها، لم أسع من خلالها إلى تلميع صورته أو غض النظر عن مزاجيته وتوتر أعصابه في مراحل متأخرة من حياته، وذلك بسبب من شغلوا أنفسهم باستفزازه وإفساد أوقات تأمله وخلوته. بينما كان الأديب الراحل في شبابه وكهولته ضحوكا، لطيف المعشر، يتصرف في بعض المواقف ببراءة الأطفال، مضيافا، فبيته كان مزارا للعديد من الكتاب الأجانب والعرب والمغاربة، وكان يناقش بشيء من العناد أحيانا، ويسيطر على الحاضرين في المجالس بِظَرَفِهِ وتَفَكُّهِهِ وتنكيته.

في الصورة النمطية التي تكونت عند البعض، يظهر محمد شكري أميا، عديم الثقافة، صعلوكا أو "ولد السوق"، مع افتراض ما يأتي من ذلك من تصرفات شائنة، تجعل منه شخصا لا أخلاقيا، لا يحترم الجماعة ولا يفي بوعد.

أعتقد أن من يحملون هذه الصورة عنه، لم يعايشوه، ولم يقتربوا من خصاله وأخلاقه ليعرفوا أنه كان كريما، صاحب أنفة وكبرياء، مترفعا، رقيق الطبع والإحساس، حريصا على احترام المواعيد، منشغلا بنظافته ونظافة بيته إلى حد الهوس، صريحا، لا يقبل المواربة، وكانت أنفته تمنعه من أن يقبل النصيحة من أحد، أو أن يرى أحدا وهو يشفق عليه. كما كان سريع الغضب، شكاكا بسبب وسواس قهري كان ينتابه بين حين وآخر، يتندر بالآخرين ويطلق الألقاب على أصدقائه ومقربيه، وأحيانا يحاكي بعض تصرفاتهم بحركاته وإيماءاته.

لم يعبد المال، بل كان ينفقه في مناسبات يحتفي فيها بنفسه أو بأصدقائه، هو من تعلم من التجارب التي عاشها أن المال يأتي ويذهب، ففي بعض الأوقات كان يجد نفسه مفلسا، ثم يأتي من المال ما يجعله موسرا.

إذا كان لم يتشبث بقيمة المال فقد كان يتشبث بقيم أخرى ذات أبعاد أخلاقية وإنسانية، حتى مع "بوهيميته" التي عرف بها الكثير من أبناء جيله، وتمرده على القيم الجاهزة والتصرفات النمطية في اتجاه أن يبني لشخصيته فرادتها وخصوصيتها.

لم يكن مُحَمَّد شكري أميا كما أشيع عنه، بل كان مثقفا وقارئا، وإنما أشيع عنه ذلك، لكونه لم يتعلم القراءة والكتابة إلا وهو في العشرين من عمره.

كما وُصِفَ مُحَمَّد شكري بأنه "كاتب شفوي"، مقارنة مع الراوي مُحَمَّد المرابط، الذي كان يروي قصصا وحكايات للكاتب الأمريكي المقيم في طنجة، بول بولز، باللغة الإنجليزية، ومن يصفونه بذلك، ينسون أو يتجاهلون أنه قد دخل المشهد الأدبي بنشره لقصصه القصيرة في مجلة الآداب البيروتية وفي جريدة العلم ومنابر أخرى، وذلك في منتصف الستينات، وقبل أن يكتب "الخبز الحافي".

عندما لجأ مُحَمَّد شكري إلى الكتابة، كان كالكثير من أبناء جيل الستينات والسبعينات، يبحث عن خلاص من المعاناة الاجتماعية والسياسية، لكن الكتابة أصبحت لها معاناتها، وهذا القلق المضاعف، هو ما عاشه مُحَمَّد شكري كما يعيشه المؤرقون بتفاصيل حياتهم وتحولات مجتمعهم وتطلعاتهم إلى المستقبل، ورهاناتهم على الكتابة، لتكون تجربة للمعيش والمتخيل، والمتذكر والمحلوم به، وممكنا من ممكنات تحرير الذات.

تأتي هذه المذكرات، بدافع الوفاء لصداقتي مع الأديب الراحل، والتي امتدت لعدة عقود، ولم تأت كتابتها بدافع التظاهر والادعاء، أو الاتجار، أو تصفية بعض الحسابات، كما فعل بعض من نشروا مذكراتهم مع الأديب الراحل.

مع أنني لا أدعي امتلاك مفاتيح شخصيته، أو الغوص في دوافع تصرفاته وما يثوي في قاع نفسه، وإنما تركت للذاكرة أن تسترجع تلك الأيام الجميلة التي عشناها معا، ثم أصبحت في خبر كان.

في هذه المقدمة، أدرج نصا كتبته ليكون تقديما للترجمة الفارسية ل"الخبز الحافي، وقد كتبته بطلب من الصديق الباحث أحمد موسى، الذي توسط بيني وبين المترجم، وقد وضعت لها عنوان: "دفاعا عن مُحَمَّد شكري"، جاء فيها:

استعادة ذاكرة الأديب الراحل مُحَمَّد شكري، تعني الكثير، فقد عاش تجربة الهجرة من الريف إلى تطوان أيام انتشار المجاعة، تلك الهجرة وَشَمَتْ شخصيته، وهو صغير، بالكثير من المعاناة التي بقيت آثارها على نفسيته إلى أن استقر في طنجة، وأصبح معلما، ثم قيما على مكتبة بإحدى الثانويات بطنجة. لم يكن مُحَمَّد شكري كاتبا شفويا، فقد كان قد تعلم اللغة العربية وهو في العشرين من عمره، ثم قرأ الأدب العربي، الحديث والقديم، وقرأ ترجمات الأدب العالمي. من اعتبروه كاتبا شفويا فقد ظلموه، والحقيقة أنه كاتب كتب باللغة العربية أعماله، التي كان من بينها "الخبز الحافي"، ومن الخطأ أن يُنظر إلى مُحَمَّد شكري ككاتب شفوي، بالمقارنة مع كتاب شفويين آخرين، حكوا حكاياتهم بانجليزية شفوية للكاتب والباحث الموسيقي بول بولز، الذي استقر في طنجة، وكان يساهم في تأسيس أدب شفوي نابع من المغرب وخصوصياته، من خلال قصص موغلة في الغرابة والخيال الفانتازي، كالتي نشرها في مجلة "بلاي بوي"، ومجلة "أنتيوس" (السرة). إلا أن مُحَمَّد شكري، وإن كان قد ساهم مع بول بولز في هذا المشروع، فإنه كان يختلف عن مساهمين آخرين، باعتباره يكتب نصوصه بالعربية.

عاش مُحَمَّد شكري الكثير من الصداقات والصحبات والمرافقات مع أناس

كثيرين، منهم من المثقفين والمبدعين: مُحَمَّد برادة (الذي تبادل معه العديد من الرسائل، طبعت في كتاب)، والكاتب الطاهر بنجلون (الذي ترجم سيرته: الخبز الحافي، إلى الفرنسية)، والروائي مُحَمَّد زفزاف، والشاعر عبد اللطيف الفؤادي، و الكاتب المسرحي الزبير بن بوشتى، وغيرهم. كما عاشت معه خادمته فتحية لعقود من الزمن، رافق خلالها أناسا كثيرين منهم "الربيو" و"مصطفى" وآخرين.

حاول مُحَمَّد شكري من خلال الكتابة، وعبرها، أن يكون أفضل مما كان قبل أن يكتب، ولقد تحقق له ذلك، رغم ما عاشه من قلق اجتماعي وسياسي جعل حياتها شديدة التوتر، وما كان يستريح من عناء الحياة إلا وهو يعيش حياة أخرى في متخيل الكتابة، منتميا إلى جيل السبعينات، الذي عايش سنوات الرصاص، وعايش أحلام التغيير.

أحسب نفسي من القريبين من مُحَمَّد شكري، فقد باح لي بالكثير من تجارب حياته، وصادقني كما صادقته، وما التفاصيل التي أحكيها في هذا الكتاب، سوى لحظات عشتها معه، على مدى عقود من الزمن، فقد عاش أسطورته الشخصية وترك لنا أن نعيش هذه الأسطورة من جديد، وأن نتداولها فيما بيننا. كانت له مدينته طنجة التي عاش حياته وهو يغار عليها من أن يكتب عنها كاتب غيره، وكانت له الكتابة التي من خلالها ظل يسترجع جراح الطفولة ولحظاتها الغُفل وبراءتها التي تكتشف قذارة العالم. ولقد شهد على هذا الكيمياء الذي يؤلف بين تجارب الذات وبين مجتمع تتصارع فيه القيم وتنحط الأخلاق. ولم يكن ينظر إلى مجتمعه، سواء عبر الكتابة أو من خلال مواقفه كمثقف حداثي، بنظرة أخلاقية تسعى إلى إصلاح ما فسد في المجتمع، بل كان يجعل من الكتابة مجالا لنقد الذات ونقد المجتمع، بينما حسبه بعض القراء، إباحيا، لا يتورع عن التعرض للأمور المسكوت عنها، والتي أراد المحافظون أن تبقى مسكوتا عنها، لا يجترحها أحد

بالسؤال ولا يواجهها أحد بالفضح والتعرية. كانت تلك مشكلة أدب مُحَمَّد شكري مع المحافظين، وبالرغم من أنه لم يفتح جبهة للصراع، فقد وجد بعضهم في أدبه "قلة حياء"، وجسارة على الأب والأم، وتشنيعا بالفساد الأخلاقي داخل الأسرة، بينما وجد آخرون في أدبه جرأة على اقتحام مناطق محرمة من الحياة الأسرية والمجتمعية، ولهذا السبب، أقبل الغرب على ترجمة سيرته "الخبز الحافي"، التي ترجمت إلى اثنين وعشرين لغة عالمية، ما عدا الفارسية، فقد لقيت سيرة مُحَمَّد شكري غضبا من الإمام الخميني، وصدور ترجمة سيرة مُحَمَّد شكري إلى الفارسية، يعد إعادة اعتبار له، وتصحيحا لوضع ككاتب لم يقصد تجريح أحد أو الإساءة إلى أحد، بل إنه قد اكتفى بسرد وقائع عاشها في حياته، وسببت له جرحا عائليا، ظل يحفر في ذاكرته الجريحة، لذلك كان مُحَمَّد شكري يعيش جراح الذات ويعبر عنها في جراح الكتابة. وهو لم يهدف من وراء الكتابة إلى الانتقام من أحد، والإساءة إلى سمعة أحد، وإنما جعل من الكتابة السيرية والروائية مجالا للتعبير عن تجارب عاشها بمرارة، وحاول في رواياته التي صدرت بعد سيرته "الخبز الحافي" أن يجعل منها متخيلا روائيا لواقع اجتماعي أوسع من معيشه الخاص، وإن كان يتقاطع معه، وحيث تتماهى الذات مع مجتمع الذات. لكنه بقي متمردا على القيم الجاهزة والعادات المألوفة، فكما شخصه صريح إلى حد التجريح، أناني لا يقبل أن يعارضه أحد في رأي، ضاحك ومتأمل وحزين، له رأي في السياسة والثقافة والمجتمع يلخصه في إشراقات وشذرات حِكَمية، كذلك شخصياته تحمل قلقها ورؤيتها للعالم. مع أن سيرة مُحَمَّد شكري تتكون من ثلاثة أجزاء، أولها من حيث الصدور هو "الخبز الحافي"، وثانيها هو "زمن الأخطاء"، وثالثها هو "وجوه"، ففي الجزئين الثاني والثالث، تهذبت لغة الحكي، فلم تعد تعبر بلغة الشارع، وبدأت تقترب من جمالية اللغة وشاعريتها وغوصها في المعاني والأفكار. يؤكد هذا الدفع بالكتابة إلى أفق جمالي أن مُحَمَّد شكري لم يكن كاتبا أميا أو أديبا

شفويا كما أشيع عنه، بل إنه واحد من الأدباء المغاربة الذين جاؤوا إلى الكتابة القصصية بين منتصف ونهاية الستينات من القرن الماضي، ونشر العديد من قصصه القصيرة في الملاحق الثقافية للجرائد المغربية، وفي مجلات عربية مرموقة، كمجلة "الآداب" البيروتية. ولا عيب في أنه لم يتعلم القراءة والكتابة إلا في سن العشرين، فقد أصبحت مكتبة بيته غاصة بكتب التراث العربي والإسلامي وبكتب الأدب الحديث والقديم وترجمات من الأدب العالمي.

لم يكن مُحَمَّد شكري يحبذ أن تكون للكتابة تنظيراتها، بل هي في اعتقاده سجية، طبع، عمل تلقائي تتدفق فيه اللغة وما تقدمه من معان، فكان يعمل أول الأمر على آلته الكاتبة، ثم تحول للعمل على الحاسوب. ورفضه للتنظيرات التي ترافق الكتابة، إنما يُرجعه إلى تمييز أساس بين المبدع والناقد، فالمبدع فنان بطبعه، بينما الناقد تتحرك بوصلة عمله بين العلم والفن.

قرأ مُحَمَّد شكري الأدب الوجودي من خلال ثلاثية جان بول سارتر "دروب الحرية" كما قرأ الأدب العالمي مترجما إلى العربية. أعجب بأرتير رامبو، ربما لأنه هاجر مثله مع اختلاف في سياقات الهجرة وأبعادها الرمزية، واتسعت قراءاته وثقافته لتشمل الشعر والموسيقى والفن التشكيلي.

عاش وهو يحمل ثلاث مشاكل في حياته: الأولى هي جرحه العائلي، والثانية هي أنه قد عاش كل حياته عازبا، محروما من الحياة العائلية، والثالثة أنه تحمل أعباء الكتابة وما سببته له من منع من قبل السلطة لكتابه "الخبز الحافي" بتحريض من قوى إسلاموية.

عندما نخر السرطان كبد مُحَمَّد شكري، واجه الموت بشجاعة، وصبر، واقتناع بأن لكل بداية نهاية. ومع الرعاية الملكية، ومساعدة الطبيب النفساني، فقد تهيأ مُحَمَّد شكري لأن يستقبل موته بكثير من الهدوء ودون ضوضاء.

بقيت أعماله وترجمات كتبه وأشياؤه الخاصة من أشرطة موسيقية نادرة ولوحات تشكيلية عرضة للمتاجرة. وكل ما بقي منه هو أعماله الأدبية، وسيرته "الخبز الحافي" التي اشتهر بها، وعرف بها الأدب المغربي، إلى أن حلت نسختها الانجليزية بمكتبة الكونغرس في الولايات المتحدة الأمريكية.

تحية لذكراه.

الفصل الأول

كانت له مدينة
كان له أصحاب

اسمه مُحَمَّد شكري

كانت له مدينة

اسمها طنجة

عاشها

وعاشته

ثم مضى

كأنه لم يكن

ومضت معه المدينة

كأنها لم تكن.

هو من كان يقول:

هذا آخر فَلْسٍ

وهذه آخر كأسٍ

وهذا آخر صديق.

"وجدتُ أمي قد ولدت طفلة ماتت في الرضاع، لكن بطنها بدأ ينتفخ من جديد.أبي ما زال يقضي معظم وقته في ساحة الفدان مستلذا بطالته. ينام كثيرا. يأكل مثل الخنزير. يتناول النشوق ويعود أحيانا ثملا إلى المنزل. ما زال يسب الناس دائما والله أحيانا. لا يحب أحدا في هذا العالم. إذا اقتربت منه قطة يمسكها من ذيلها ويخبطها مع الحائط".

(الخبز الحافي، ص ٦٩)

قليلون هم الأشخاص الذين يسكنون في الذاكرة ويحركون الوجدان، حتى إننا لا نستطيع أن نتخلى عنهم، أحياء أو أموات، من فرط ما تكون لهم السطوة على إمداد الذاكرة والوجدان بما يستعيد ما ضاع لحظات وأوقات لم نكن لنصدق أنها سوف تتحول إلى ذاكرة، من فرط الانغماس فيها.

من أولئك، مُحَمَّد شكري، وما عشته معه من خلال صداقة امتدت لأربعة عقود.

وإذا كانت الذاكرة تقوم بإحياء الماضي، وجعله ماثلا أمام العين، بتفاصيله ولحظاته، فإنها أيضا، توقظ في النفس الحسرة على ماض يبدو جميلا، وربما، أجمل هو أن مما كان عليه، لسبب بسيط، هو أن ليس بإمكاننا أن نحياه من جديد إلا من خلال التذكر والاسترجاع. تلك الحسرة نفسها لا تفيد في شيء، فالماضي لا يعاد إلا من خلال الذكريات.

من تلك الذكريات ما أسجله في هذه المذكرات، في محاولة لاسترجاع تفاصيل صداقتي مع الأديب الراحل مُحَمَّد شكري، وما عشته معه من أحداث ووقائع، وما سمعته منه من بوح وخلجات للنفس، وفي ذلك وغيره كنتُ متابعا لبعض المؤثرات التي وجهت حياته ليكون كاتبا، ويصبح كاتبا عالميا، ومن خلال المراحل التي عاشها والمحطات التي عاش فيها نوعا من التحول، تحت تأثير عيشه الخاص وتطوره الفكري والثقافي ومعايشته للكتاب المغاربة والعرب والعالميين، وتغير نظرته للحياة والكون، مما جعله يكتب أعمالا متباينة من حيث تمثلها لتجارب عاشها وعبر عنها في سيرته المكونة من ثلاثة أجزاء، هي: "الخبز الحافي"، "زمن الأخطاء"، و"وجوه"، بما جاءت عليه من تباين في طرائق الكتابة وتملك الواقع، مما جعله صوتا منفردا في الكتابة والإبداع، وشخصا يبدع حياته ليمدها بالتجدد وتجاوز جراح الماضي.

كان شكري ينظر إلى مجتمعه من خلال الواقع الذي عاش فيه، ومن خلال

الكتابة، باعتبارها قادرة على احتواء التجارب والأفكار والمواقف، وكل ما هو سيرة للذات وسيرة للعين وسيرة لمدينته طنجة، التي عاش فيها وتملكها كما تملكته، في الكتابة والحياة معا، إلى درجة أن أصبح يغار عليها من كتاب آخرين، استوحوها في أعمالهم وجعلوا من معالم ورموز فضائها تشكيلا لأعمالهم.

لم يكن شكري ينظر إلى حياته الخاصة بنرجسية وإعجاب بالذات، بل كان ينطوي على جراح عاشها منذ طفولته، خلال المجاعة التي عاشتها منطقة الريف في ثلاثينات القرن الماضي. لذلك ظلت ذاكرته تختزن أبشع الصور عن معاناة أسرته وهجرتها إلى تطوان بحثا عن الخبز.

لم يصبح شكري كاتبا نرجسيا إلا بعد أن نالت سيرته الذاتية: "الخبز الحافي"الحفاوة الكبيرة من القراء والنقاد والمترجمين، فترجمت إلى اثنين وعشرين لغة عالمية.

لكن ذلك لم يبدد من جراح الذاكرة شيئا، بل كان شكري، ينقلب من فرح طفولي إلى غضب مفاجئ كلما استعاد بعض المواقف التي عاشها في طفولته وبداية شبابه، وبذلك يفسد مزاجه ويصبح ناقما على نفسه وعلى من عاشوا مرارة تلك الأيام الصعبة.

خلال البوح، كان يستعيد الكثير من التفاصيل، التي يشف غليله منها ما كتبه في سيرته، بل ظل يسترجعها ليحكيها بكثير من الأسى والمرارة، حتى إنني كنت أصغي إليه وهو يسرد فصولا من سيرته كتلك التي كتبها مع زيادة في التفاصيل. كان هو نفسه ينتبه إلى أنه يسرد وقائع أشد وطأة وعنفا، فيعلق على ذلك بأن ما واتاه من جرأة خلال كتابته لسيرته لم يسمح له بأن يقول كل شيء، وأن يقف عند لحظات أعنف من تلك التي سجلها في سيرته.

الكتابة عند شكري، وخاصة في "الخبز الحافي"، فجرت ما يثوي في ذاكرته الطفولية وما عاشه في بداية شبابه من محن ظلت آثارها موشومة. مع ذلك، فقد كان يلح على أنه لم يكتب سيرته من أجل التشنيع أو الانتقام، أو تشويه صورة أحد من أفراد أسرته، وإنما كان يجعل من الذات وتجارب الذات موضوعا للكتابة، وشهادة على مرحلة عاشها وعبر عنها في الكتابة بجرأة، والجرأة هي السمة البارزة في تناول شكري لتفاصيل حياته ومحيطه العائلي والاجتماعي، ومنها استمدت سيرته "الخبز الحافي" خصوصيتها كعمل سير ذاتي يختلف عن الأعمال السير ذاتية التي عرفها الأدب العربي، يعزز مكانتها أنها قد ظهرت في فترة سادت فيها موجة كتابات السيرة الذاتية في الكثير من أنحاء العالم، من قبل كتاب غير معروفين، لكنهم عرفوا بجرأتهم في التعبير عن جراح الذات ومعاناتها داخل محيط اجتماعي متصدع، حافل بمظاهر الفقر وتوتر العلاقات العائلية. في هذا الوضع، وجدت سيرة شكري صداها العالمي، فأقبل عليها القراء والمترجمون الذين نقلوها إلى اللغات العالمية، ومنعت في المغرب بتحريض من السلفيين، وأصدر الخميني فتواه بقتل كاتبها.

لعل شكري قد أصيب بالدهشة أمام الأثر الذي تركته سيرته عند القراء والناشرين والمترجمين، سيما وقد انتقل من عيش ينذر بالإفلاس المادي إلى ثراء لا بأس به بما تدفق عليه من أموال هي حقوق ترجمات سيرته، ثم تتحول الدهشة إلى طقوس أخرى لحياة الرفاه التي عاشها فيما بعد، منتقما من لعنة الفقر، والدخل المحدود من وظيفته ثم من راتب تقاعده. مع ذلك، فقد ظل شكري يبدع تفاصيل حياته، لأنه لم يكن مجرد محتفل عادي بالذات، بل كان يحتفل بما حققته له الكتابة من مجد وشهرة وتدفق أموال.

أصبح مُحَمَّد يصنع لنفسه فن العيش، بين تعاط للطبخ وسماع للموسيقى العالمية

وأسفار في الذات وفي المدن التي زارها لأول مرة، بعد أن كان لا يغادر طنجة إلا لماما.

من مظاهر الرفاه التي عاشها أنه قد تخلى عن آلته الكاتبة التي أهديت له بمناسبة تقاعده النسبي، واشترى حاسوبا، سرعان ما تدرب على استخدامه، وأصبح يخزن فيه أعماله، كما جعل من سطيحة بيته حديقة بهية تطفح بالأغراس، وأطلق العنان لسهراته هنا وهناك، وحيثما طاب له السهر.

كان يؤكد أن الصدفة هي التي أوصلته إلى ذلك، وهي التي التقى خلالها مع بول بولز، والتي جاء من نتائجها أن التقى مع الطاهر بنجلون بواسطة مُحَمّد برادة.

ظل شكري كاتبا، فقد نشر روايته "السوق الداخلي"، التي لم تنل شيئا مما نالته سيرته "الخبز الحافي"، ونشر أعمالا أخرى هي الأخرى لم تحظ بمثل ما حظيت به سيرته. تولدت الخيبة في نفسه، رغم استمرار سيرته في التألق والحضور عبر الترجمات، لذلك توقف عن الكتابة لعدة سنوات، كان خلالها يقول إنه لم يلتزم مع أحد لكي يبقى كاتبا إلى الأبد. وكان هو نفسه يدرك أن "فضائحية" سيرته هي التي أوصلتها إلى ما حققته من نجاح. باب مسدود وقف أمامه، ثم لم يقتحمه إلا وهو يكتب الجزء الثاني من سيرته: "زمن الأخطاء"، ليثبت لنفسه ولقرائه أنه ما زال يداوم على الكتابة والنشر، وأن كتابة سيرته في جزئها الأول لم تكن مجرد نزوة، أو بيضة ديك.

خلال فترة السبعينات والثمانينات، ظل شكري صديقا للكتاب المغاربة، من أبناء جيله، وكما تصاحب معي فقد تصاحب مع الأديب الراحل مُحَمّد زفزاف، فكانت بينهما محبة كبيرة، واحترام متبادل، وتصاحب مع الكاتب إدريس الخوري فكان بينهما شنآن دائم، بلغ حد العداء في التسعينات. وكان له أصحاب كثيرون، من الكتاب ومن المثقفين وحتى من بعض الناس العاديين. يؤشر ذلك

على أن شخصيته كانت منفتحة على العلاقات الاجتماعية، وعلى محبة الآخرين واحترامهم، إلا ما كان خصومات سببها ما كان الأديب الراحل يتعرض له من استفزاز وسخرية وتشنيع بتاريخه الشخصي، وذلك من قبل أناس فارغين أو حاسدين، فهم يخاصمني إلا خصومات صغيرة تدوم للحظات ثم نتصالح، كما أنه هو من تصاحب مع مُحَمَّد زفزاف ومُحَمَّد برادة والطاهر بنجلون، والتقى مع عبد الوهاب البياتي وحميد سعيد وعلي جعفر العلاق من الأدباء العراقيين، وغيرهم من الأدباء العرب والأجانب، فلم يخاصم أحدا منهم، بل كان ودودا لطيف المعشر، مضيافا، يفتح بيته وقلبه للآخرين.

كان له أصحاب، التقى بهم في مساءات من أيام سعادته ثم غاب الأصحاب بغيابه وبقيت ذكراهم و ذكراه.

عاش شكري، بعد الهجرة من الريف، بين تطوان والعرائش، ثم استقر في طنجة. في أكثر من مناسبة، نوه شكري بلقائه في إحدى مقاهي تطوان مع الأديب مُحَمَّد الصباغ، الذي حفزه على القراءة، فاشترى كتبا مدرسية وأخذ بعصاميته يتعلم منها القراءة. يذكر أنه خلال ذلك اللقاء، راودته فكرة أن يصبح كاتبا، فأدرك أن السبيل إلى ذلك هو أن يتعلم القراءة والكتابة. درس في إحدى المدارس في العرائش، ليلتحق بمدرسة المعلمين ويتخرج منها معلما. ذكرياته في العرائش لا ينساها، وكم كان يسردها، وهو يضحك، إلى أن تدمع عيناه.

كما عاش في تطوان التشرد وامتهن عدة مهن، من بينها أنه كان في سن مراهقته يعمل نادلا في مقهى ب"عين الخباز"، وكان المقهى يتحول ليلا إلى خمارة، فكان شكري هو من يذهب إلى "الملاح" ليزود الخمارة بالخمور، نقابل أجر بسيط على ذلك. ويذكر أنه كان يغني أغاني مُحَمَّد عبد الوهاب وفريد الأطرش وهو يقف فوق إحدى الموائد. أما في "الطرانطات" فهو لا ينسى المكان الذي

كانت والدته تبيع فيه الخضر، وحائط الفرن الذي كان ينام بجواره ليستمد منه الدفء في ليالي الشتاء. أوقفني على هذين المكانين ذات مرة، وأخبرني بأنه كان قد أوقف عليهما المترجم الياباني نوبوطاهارا، الذي كان بصدد ترجمة "الخبز الحافي" إلى اليابانية، بعد أن رغب في أن يزور الأماكن التي ارتبطت بذاكرة شكري واستحضرها في سيرته.

تملك مُحَمَّد شكري طنجة وتملكته. عاش فيها حتى آخر حياته، حتى إنه كان في بعض الأحيان يتخلى عن قوله: "أنا كاتب عالمي"، ويقول: "أنا كاتب طنجاوي". وكان يغار على طنجة من الكتاب المغاربة الذين استوحوها في أعمالهم، ويعتبر نفسه أجدر بالكتابة عنها، لأنه عاش فيها عقودا من حياته.

عاش شكري حياته عازبا، يسترجع فشل حبه الأول، ويجرع من نساء كثيرات كؤوس المرار، ما عدا ما أهدته إليه شابة إنجليزية أغرمت به، وعاشت معه عدة شهور، ثم اضطرت للعودة إلى بلدها تحت ضغوط من والديها.

عاش شكري كاتبا، وهو المغربي الوحيد الذي قبلت وزارة الداخلية أن تعترف له ب"مهنة كاتب" في بطاقته الوطنية.

موته خسارة كبرى لأصدقائه ومحبيه، وللأدب والأدباء.

الفصل الثاني

بعض من أوقاته

هم ليليو طنجة ونهاريوها

كما رآهم

أو كما رأوه

وهم مجانين المدينة

وشواذها

ومومساتها

ومثقفوها

وزوارها

كما رآهم

أو كما رأوه

وهي مدينته طنجة

إن رأته فهي تعرفه من بين آلاف الرجال.

"عندما نجحتُ في مباراة الدخول إلى مدرسة المعلمين أحسست كأني قد ولدت من جديد. اعتقدت أنني بنيت جدارا منيعا بيني وبين الاحتقار الاجتماعي، والجهل، والبؤس. يا للغباء! إن النحس كان أقوى من فرحتي. أبي لم يستقبل نجاحي إلا بقدر ما سأعطيه من راتبي الشهري. بدأ يساوم أكلي، ومبيتي في الكوخ القصديري، المتفرقة فيه الفئران، قبل أن أقبض حوالتي الأولى من منحة التدريب في مدرسة المعلمين، إنه يعبد المال أكثر مما يعبد الله".

(زمن الأخطاء، ص ١١٥)

وقت للتعارف

تعرفت على مُحَمَّد شكري في نهاية الستينات، وفي سنة ١٩٦٨ بالتحديد، وأنا طالب بكلية الآداب بفاس، في مهرجان ثقافي كانت قد نظمته جمعية الشعلة بمدينة القصر الكبير.

قبل ذلك اللقاء الأول كنت قد قرأت له بعض القصص القصيرة التي كان قد نشرها بجريدة العلم، وحسبته كاتبا تونسيا من كتاب الموجة الجديدة في تونس، وحيث كان بعض الكتاب التونسيين ينشرون قصصهم بنفس الجريدة.

كانت القصة القصيرة العربية مع نهاية الستينات وبداية السبعينات تعرف موجة جديدة اتجهت نحو تحديث الأشكال وارتياد ممكنات تخييلية جديدة. ومن ضمن ذلك ما عرفته القصة القصيرة المغربية من طفرة أطلق عليها الناقد مُحَمَّد برادة: "لغة الطفولة والحلم"، وكان من روادها من اختار برادة نصوصهم في مختاراته. تواقتت مع هذه الطفرة طفرة أخرى عرفتها القصة القصيرة التونسية،فكان من روادها أحمد مومو، سمير العيادي، عز الدين المدني ومُحَمَّد القديدي وآخرين. يضاف إليهما طفرة ثالثة تواقتت معهما، هي التي ظهرت في مصر، وكان من كتابها جمال الغيطاني، إبراهيم أصلان وبهاء طاهر وآخرين.

كان التجريب هاجس كل هؤلاء الكتاب الذين سعوا إلى تفجير الواقع وإعادة بنائه من منظور جديد يتجاوز الواقعية في الأدب. وكانت القصص القصيرة التي نشرها شكري، تندرج في هذا المنحى من الكتابة.

التقيته وسط حشد من الكتاب الوافدين على مدينة القصر الكبير من فاس والرباط والدار البيضاء، ومن خلال التقديم عرفت أنه كاتب مغربي. أخذ يذكر لي، بصوته الجهوري، أسماء من يعرفهم من الكتاب، ويستفسر عن أسماء من لا يعرفهم. جاء من أخبرنا بأن الكتاب الحاضرين قرروا التظاهر أمام باشوية

المدينة،احتجاجا على باشا المدينة الذي قرر منع الأديبين عبد الكريم غلاب ومحمد إبراهيم بوعلو من دخول مدينة القصر الكبير. كانت المرحلة تعرف احتقانا سياسيا بين السلطة وبين الأحزاب السياسية واليسار، وقد بدأت السجون تفتح أبوابها للمعارضين. غليان سياسي كان له تأثيره على حركة الاحتجاج أمام قصر الباشوية. سرنا مع المتظاهرين. خلال الطريق قال لي شكري:

. هل هناك قانون تمنع المواطن من أن ينتقل بين مدينة وأخرى؟

قلت له:

. السلطة لا تحترم القوانين، تستبد بالقرارات، حتى التي تمس حرية المواطن.

قدمنا عريضة الاحتجاج لأحد الموظفين. بدا شكري متأففا وقال لي:

. جئنا إلى مهرجان ثقافي، ولم نأت لنخوض نضالا سياسيا.

قلت له:

. السياسي والثقافي يتداخلان في حمولة وعي واحدة.

سألني:

. بعد أن انتهت المظاهرة ماذا سنفعل؟

قلت له:

. لا أعرف. المنظمون هم من يرتبون تفاصيل البرنامج، وهم لم يخبرونا بما سوف نفعله بعد المظاهرة.

قال وقد بدا على سحنته شيء من التعب:

. أريد أن أتحرر من البرنامج الرسمي حتى أذهب إلى خمارة. هل ترافقني؟

أحسست بالحرج. كنت لم أذق طعم الخمرة ولم أحضر مجالسها. رآني مترددا

فقال لي:

. إن لم ترافقني أنت فسوف أختار من الكتاب الحاضرين من يرافقني.

وقفنا لا نستقر على شيء. قال لي:

. يوجد في مدينة القصر الكبير حي يسمى "الديوان"، وهو حي للعاهرات. هل تحب أن نذهب إليه؟

قلت له:

. ليس اليوم.

قال:

. إذا حدث أن التقيت مع عاهرة، بدون عازل طبي، ومرضت، فأنا أشفيك.

سألته:

. كيف؟

قال:

. أعرف أسماء المضادات الحيوية التي تشفي تلك الأمراض المنقولة جنسيا.

ثم قال لي:

. جرب! عليك أن تمرضوأنا أشفيك.

في تلك المرحلة من سني وتجاربي ومقروءاتي كان حديث شكري غريبا علي، فقد عاشرت أصدقاء يتكتمون على أسرار الجسد ورغباته وإحباطاته، جديين أكثر من اللازم، فكنا نتحدث في أمور الثقافة والسياسة والفكر ونعرض أفكارنا على بعض لنتجادل حولها، وكان زادنا من مقروءاتنافيالوجودية والماركسية يغذي الكثير من رؤانا للحياة والكون. لذلك، فقد استغربت صراحة شكري في

الحديث، وما وجدت له شبيها من أبناء جيلي الذين تعرفت عليهم في كلية الآداب، وخاصة الطلبة المبدعين، الذين كان من بينهم الشاعر مُحَّد بنيس والقاص أحمد بوزفور والناقد نجيب العوفي.وكنتُ وقتها قد بدأت النشر، وتعرفت على مُحَّد برادة وعبد الجبار السحيمي الذي كان ينشر لنا القصائد والأشعار في جريدة العلم. كنتُ آخذ الحياة بقدر كبير من الجدية، ولذلك وجدت في حديث شكري إفصاحا بعيدا عن الكتمان وصراحة لا تعرف الرياء. استلطفته وأحببت حديثه النابض بالحياة. تحدثنا حول ما نكتبه وما ننشره في الجرائد والمجلات. وقتها لم يكن قد صدر لأي منا كتاب منشور، وكنا نأمل ذلك. استلطفته متناسيا حديثه عن الخمر والنساء. أخذنا الحديث إلى الوضع الثقافي والأنشطة الثقافية التي تمنعها وزارة الداخلية. قال لي:

ـ أنا لست مسيسا. لكني مع الانسان المغربي المسحوق.

قلت له:

ـ أنت كاتب طلائعي، والطلائعية في الكتابة هي أيضا، رؤية للمجتمع والكون، وليست مجرد تمارين أسلوبية.

سألني:

ـ وهل أنت مُسَيَّس؟

قلت له:

ـ أنا منتم إلى الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، والاتحاد أداة تنظيمية طلابية ينتمي إليها الطلاب من كل الأحزاب السياسية، لكن الغلبة للطلبة المنتمين إلى الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، (الاتحاد الاشتراكي حاليا) وإلى حزب التقدم والاشتراكية.

سألني:

. وحزب الاستقلال؟

قلت:

. له حضور ضعيف، غير فاعل في الساحة الطلابية.

سألني:

. هل أنت مناضل طلابي؟

أجبته:

. أنا لست إطارا تنظيميا، لكني أحضر التجمعات بانتظام وأسير في المسيرات، غير أنني أجعل الكتابة في المقام الأول.

سألني:

. هل تقرأ مجلة الآداب؟

أجبته:

. أقرأها بانتظام.

. نشرت فيها بعض قصصي القصيرة.

. قرأتها.

. هل تعرف مُحَمَّد زفزاف؟

. من خلال ما أقرأ له، لكني لم ألتق به.

. إذا جئت إلى طنجة في الصيف، وزرتني، ستجده في بيتي، وسأعرفك عليه.

قلت له:

. عندما قرأت اسمك على صفحات الملحق الثقافي لجريدة العلم، حسبتك كاتبا تونسيا.

ضحك وقال لي:

. أنا مغربي، ريفي. أصلي من الريف، لكني اليوم أعيش في طنجة. هل تأتي إلى طنجة؟

قلت له:

. أتيت إليها قبل ثلاث سنوات، رفقة جدي.

بدا عليه العجب فقال:

. جدك؟

قلت:

. كنت في السنة الخامسة ثانوي، وقد سافرت مع جدي خلال عطلة الربيع إلى طنجة وتطوان ومرتيل.

سألني:

. لماذا سافرت مع جدك، وليس وحدك أو مع شخص آخر؟

قلت:

. لأنه هو من كان يرعاني، عشت في كنفه منذ أن كان عمري ثلاثة أشهر، حيث طلق والدي والدتي.

بدت عليه علامات التفكير، وقال لي:

. أنت أيضا عشت محنة مع العائلة؟ قد لا تكون مثلي، فوالدي ذهب إلى الجندية ولم يعد إلا وهو عاطل يتحشش ويضربنا أنا وإخوتي.

بدا متبرما، وقال لي:

ـ طال وقوفنا.

نظر حواليه، فرأى أحد الكتاب، وتبادل معه التحية، ثم ودعني وسار معه. ندمتُ لكوني لم أذهب معهما، فقد كان الحديث في أوله، مغريا بامتداد أكثر، وهو لم يحك القصة بكاملها كما أنا لم أحك القصة بكاملها. ذهبتُ إلى الفندق. في الردهة جالست عبد الجبار السحيمي، الذي وصل من الرباط للتو، فأخذ يحكي عن فيضانات وادي سبو وما أحدثته بأراضي الغرب غمر للمزروعات. ثم سألني:

ـ هل حضر شكري؟

أخبرته بأنه قد حضر، وأنني كنتُ معه قبل حين.

في صباح الغد، التقينا أنا وشكري على مائدة الفطور. أخذ ورقة وكتب عليها عنوان سكناه وعنوانه البريدي، ثم قدمها إلي، وقال لي:

ـ إذا أتيت إلى طنجة، فمرحبا بك.

شكرته وقدمت له عنوان سكناي في فاس وهو نفسه عنوان بريدي.خلال اللقاء، عشنا أجواء المحاضرات والندوات، إلى أن انفض جمع الكتاب، وبقيت صورة مُحَمَّد شكري ماثلة أمامي.

راسلته بالبريد فرد على رسالتي الأولى على الفور. غبت عن مراسلته فبعث إليّبرسالة.رسائله كانت تعكس شخصيته، بما تميل إليه من تلقائية وجرأة في الحديث عن معيشه ولياليه الخمرية، وعلاقاته مع المومسات.

وقت للصداقة

جاء صيف ١٩٦٩، فأتيت إلى طنجة دون أن أُخبرشكري بمجيئي برسالة. أقمت في فندق ب"السوق الداخل"، قريب من "مطعم أليسيا" (المنهار اليوم من الداخل، وقد أصبح خرابا)، وحينما استقر بي الحال سرت نحو "سينما الروكسي" باحثا عن العمارة التي يقيم مُحَمَّد شكري في إحدى شققها. صعدت الأدراج إلى الطابق الخامس. هناك واجهتني لوحة نحاسية على باب إحدى الشقق، كتب عليها: مُحَمَّد شكري. توقعت أن أجده أو لا أجده، وإن لم أجده فسوف أترك له ورقة من تحت الباب. قرعت جرس الباب. بدا لي من ينظر من العوينة. فتح مُحَمَّدالباب.نظر إليّ. وَسَعَ عينيه، ثم ابتسم.عانقني وقال:

ـ مرحبا. تفضل.

تصرف معي بكثير من التلقائية والحميمية.بدأيحكيعن بعض التفاصيل التي عاشها ليلة في سهر طويل امتد حتى الصباح، ومن خلال حديثه عرفت من هم أصدقاؤه الذين عاش سهرته معهم، والأحداث التي وقعت مع بعض الفتيات. ظل يحكي بتلقائية وعفوية، وكأنه يعرفني منذ أمد طويل.

نظرتُ إلى مكتبته الغاصة بالكتب التي تمثل أنواع الثقافة، وروايات ودواوين شعرية من الشعر القديم والحديث، وتطلعت إلى أثاث غرفته. أثارت انتباهي صورة فتاة جميلة يضعها فوق التلفزيون، حسبتها رفيقته، لكني حينما سألته عنها فيما بعد، أخبرني بأنها أخته الصغرى، مليكة.

قال لي:

. سنخرج لنعيش بعض الوقت مع النهاريين، ثم نعود إلى هنا لنستريحبعضالوقت،ثم نخرج لنعيش كل الوقت مع الليليين.

سألته:

ـ ومن هم النهاريون والليليون؟

ضحك وقال:

ـ هم سكان مدينة طنجة. منهم من يعيشون حياتهم بالنهار وينامون في الليل، ومنهم من يعيشون حياتهم بالليل وينامون بالنهار.

خرجنا. قصدنا إحدى الحانات. تبادل التحية مع النادل. جلسنا إلى إحدى الموائد. قال لي:

ـ من يوجدون في هذه الحانة هم النهاريون. وعندما نزورها بالليل، سوف نلتقي بالليليين.

استغربت ذلك، ولم أتوقع أن يكون من سكان مدينة طنجة أناس يعيشون بالنهار وآخرون يعيشون بالليل. بدا لي ذلك من قبيل العيشفيمدينة أسطورية ينقسم سكانها إلى ليليين ونهاريين. عشنا نهارنا مع النهاريين، ومُحمَّد ينتقل بحديثه من موضوع لآخر، وأنا أصغي له وأتطلع إلى فضاء الحانة وحركات الرواد.

طلب مني أن نذهب. تقاسمنا ثمن ما شربناه. قال لي:

ـ الحساب يطيل العشرة.

لم أعلق على كلامه. قال:

ـ من الآن، سوف نتقاسم ثمن الشراب والطعام.

سرنا وسط زحام المارة، إلى أن وصلنا إلى مطعم صغير دخلناه فوجدناه فارغا إلا من فتاة تناولت "البيصارة" ثم أشعلت سيجارة. طلب مُحمَّد "البيصارة" لنا معا، مع دزينة من قضبان اللحم. في انتظار أن يأتي ذلك تطلع إلى الفتاة التي تدخن

بحرقة وقال لي بصوت خفيض:

. البيصار ومارلبيورو! ليتها لم تدخن وأخذت مع البيصار قضبان اللحم! لكنه الإدمان.

نظر إلكتفي الفتاة العاريين، وصدرها الممتلئ، ثم قال لي:

. المسكينة! إنها واحدة من بنات الليل.مرة اصطدت فتاة مثلها، ممتلئة الصدر. عريتها وكنت قد أعددت السانگَريا. هل تعرفها؟

قلت له:

. لا أعرفها:

قال:

. شراب إسباني يوضع في الغراف ويُشرب من أكواب كبيرة. فواكه وسكر وقرفة وخليط من الخمور: دجين، كونياك، وسيكي، والنبيذ. سنشربها في إحدى الحانات.

سألته:

. وهل شربت مع رفيقتك؟

قال:

. ملأت ما بين النهدين بقطع الفواكه، وصببت عليها قليلا من الخمر، ثم أكلت وشربت، وتابعت ما اندلق من خمر حتى السرة، وما تحتها.

أخذ يضحك، وقال:

. جنوني قال لي أن أفعل ذلك.

ثم سألني:

. أين تقيم؟

أخبرته بأنني أقيم في فندق بالسوق الداخل. ولما ذكرت له اسمه عرفه، وسألني:

.كم تدفع في الليلةوكم سوف تبقى من الأيام؟

أخبرته بذلك. أجرى الحساب، وقال لي:

. الأفضل من إقامتك في الفندق أن تقيم في بيتي.

كنتُ قد لاحظت أن بيته لا يتوفر إلا على فراش كبير، وفرش للجلوس. قال:

. تشتري حصيرا وفراشا تفرشه على الأرض، ومخدة. أما الأزر والأغطية فأنا أتوفر عليها، وهي نظيفة.

سألته:

. ولماذا كل ذلك؟

قال:

. الأيام التي ستقضيها في طنجة، سنقضيها مع بعضنا، وإقامتك في بيتي سوف توفر علينا التنقل في آخر الليل من أماكن سهرنا، أنتَ إلى الفندق وأنا إلى شقتي.

جاء النادل ب"البيصارة" وقضبان اللحم. أخذنا نتناول. ذقت من اللحم فوجدته في مستساغا المضغ، في غاية اللذة، ولما عبرت له عن ذلك، قال لي:

. على صغر هذا المطعم، فأنت إن أتيتَ إليه بعد منتصف الليل، لوجدت

حشدا من الناس، كلهم ينتظرون دورهم.

أخذ يحدثني عن صديقه الكاتب مُحَّد زفزاف، الذي تعود أن يقيم في بيته خلال أيام من عطلة الصيف، وأخبرني بأنه كان يشتري الحصير والفراش والمخدة، فينام عليهما لتلك الأيام، ثم عندما يأتي في الصيف القادم، لا يجدها، ويضطر لشراء أخرى. سألته:

. ولماذا لا يجدها؟

قال:

. لأنني في وقت الحاجة أبيعها. وسأبيع تلك التي سوف تشتريها أنت، بعد عودتك إلى فاس، إن اشتدت بي الحاجة.

أخذ يضحك. ضحكت، وقلت له:

. بعهما.

قال:

. لن أطلب منك الإذن بذلك.

خرجنا من المطعم. اتجهنا نحو "السوق البراني". اشترينا الحصير والفراش والوسادة. وجدنا من حمل ذلك إلى بيت مُحَّد. بدا مرهقا. أفرغجيوبه من كل ما فيها ونزع ساعته اليدوية ثم وضع الكل على مائدة توجد بغرفة الجلوس. قال لي:

. أنا سأنام هنا.

ثم أخذني من يدي وأشار إلى المرحاض، وإلى الفراش الوثير فقال لي:

. نم عليه. إنه نظيف.

سألته:

ـ والفراش الذي اشتريناه؟

قال:

ـ اتركه إلى ما بعد.

نزعت حذائي. استلقيتُ على الفراش.

بعد أن أفقنا من نوم القيلولة وضعنا الحضير على الأرض وفوقه رتبنا الفراش والوسادة. أتاني بإزارين وقال لي:

ـ ضع واحدا على الفراش وإذا شئت التحف بالآخر.

أمضينا ليلتنا في سهر جميل، في ملهى ليلي تعزف فيه امرأة أوربية على البيانو، والرواد لا يتحدثون إلا همسا، احتراما لعزفها. طوال السهرة كان شكري يقدمني لأصدقائه ومعارفه، وكان يحرص على أن يرفق اسمي بصفة كاتب. لم يجالسنا أحد من أولئك، فشكري لم يدع أحدا منهم. قال لي:

ـ سوف نجالسهم فيما بعد، عندما نلتقي معهم في ملهى آخر. الحديث معهم يختلف عما يمكن أن يدور من حديث بيني وبينك حول الثقافة والأدب.

جلنا في عدة أماكن، إلى أن أخبرني بأن ما معه من المال قد نفد، وعلينا أن ندفع الحساب ونغادر.

في الصباح أفقنا على حركة داخل الشقة. كانت فتحية قد أتت. قدمني شكري لها:

ـ هذا السي عز الدين، صديقي. كاتب.

وقال لي:

ـ السيدة فتحية، هي من تساعدني في أشغال البيت.

أعجبتُ لكونه يصفها بالسيدة، احتراما لها، ولا يسميها خادمة، بل مساعدة في أشغال البيت.

وقت للاستدانة

أفطرنا في "مقهى الروكسي"، ثم اتجهنا نحو "السوق الداخل". طلب مني أن أنتظره لبعض الوقت، ثم صعد أدراجا لم أعرف أنها تؤدي إلى فندق إلا بعد أن قرأت اللوحة التي تشير إلى ذلك. غاب لبعض الوقت، ثم طلب مني أن نذهب. قصدنا "مقهى الرقاصة". طلب مني أن أنتظره، ثم دخل المقهى. رأيته يتحدث مع رجل يضع على رأسهطربوشا أحمر، ويرتدي جلبابا رماديا. عندما عاد إلي دخلنا "مقهى السنطرال" وجلسنا إلى إحدى الموائد. تبادل شكري التحية مع النادل، ومع بعض الجالسين الذين أخبرني بأنهم صرافون يصرفون العملة في السوق السوداء. حدثني عن تاريخ المقهى، والأجانب الذين كانوا يرتادونه أيام كانت طنجة دولية، والأدباء العالميين الذين حلوا به.

في صباح الغد، أتينا إلى "السوق الداخل"، فقام شكري بصعود تلك الأدراج التي سبق أن صعدها في صباح أمس. سألته:

ـ ما الذي نفعله هناك؟

قال:

ـ أستدين ألف فرنك. كل يوم يقدم لي صاحب الفندق دينا بألف فرنك، أرده له في آخر الشهر، عندما أتوصل براتبي.

ثم سرنا نحو "مقهى الرقاصة"، فتكرر ما فعله بالأمس. قبل أن أسأله قال لي:

ـ وألف فرنك أخرى أستدينها كل يوم من السي العلوي، الأب الروحي.

وأشار إلى الرجل صاحب الجلباب الرمادي والطربوش الأحمر.

سألته:

ـ ما الذي تقصده بالأب الروحي؟

قال:

ـ كان يعطف علي في سنوات المحنة، وهو من زودني بالساعات اليدوية التي كنتُ أبيعها في الميناء، حتى لا أسرق، كما قال لي.

في "مقهى السنطرال"، حدثني عن "مقهى الرقاصة"، الذي كان مكتبا لأول بريد في المغرب. كان يستقبل الرسائل من كل جهات المغرب، ويوزعها على كل دول العالم، والرقاصة هم من كانوا يأتون بتلك الرسائل من مختلف مناطق المغرب ليتم فرزها وتوزيعها.

سألته:

ـ والألفا فرنك؟

قال:

ـ بهما أنفق على أكلي وشرابي كل يوم، لأنني مفلس.

خلال مقامي معه في طنجة، ظل كل يوميستدين الألفي فرنك، من صاحب الفندق ومن السي العلوي، الذي سماه الأب الروحي.

وقت للخبز الحافي

في تلك الفترة من بداية السبعينات، ١٩٧٢ أو ١٩٧٣، كتب شكري سيرته الأولى "الخبز الحافي" تحت نظري في "مقهى السنطرال" في صباحات من العاشرة إلى الثانية عشرة زوالا، ولا أذكر، هل كان قد بدأ الكتابة في نفس الوقت والمكان قبل أن ألتقي به أم أنه قد بدأ الكتابة في غد ذلك اليوم الذي التقيت به فيه، لذلك فأنا لا أجازف بعدد الأيام التي استغرقها وقت الكتابة، وهي على الأرجح، لاتتجاوز الخمسة عشر يوما.

كنا نخرج من بيته في الصباح، في حدود التاسعة، أو التاسعة ونصف، فنذهب إلى المقهى ليجلس هو إلى مائدة وأجلس أنا إلى أخرى. يطلب قهوة مخلوطة بالحليب ثم يُخرج من محفظته دفترا مدرسيا من حجم أربع وعشرين ورقة، ويبدأ في الكتابة.

من مائدتي كنت أرقبه وهو يكتب سطرا ويترك سطرا آخر فارغا، كما كان يكتب بحروف كبيرة، وبتدفق يوحي لي بأن ثمة شيء من فيض الخاطر، أو ثمة ما وقع احتباسه لفترة طويلة ثم جاء وقت تصريفه وتدفقه على الورق بذلك النحو. كان في جلسة صباحية واحدة يكتب الكثير من صفحات ذلك الدفتر، وأحيانا يكاد يملأه، ثم يعطيه رقما. وحالما يسأم من الكتابة، بعد أن أمضى فيها ساعتين أو أكثر، ينظر إلى الدفاتر المدرسية ثم يضعها في الحقيبة ويأتي ليجلس معي. يكون مرهقا. لا يحدثني عما يكتب، لكنه كان قد أخبرني بلقاء له مع بول بولز الروائي والمترجم وعالِم الموسيقى الأمريكي، وأن ذلك اللقاء قد تم بواسطة الحكواتي مُحَمّد المرابط، الذي هو في ذات الآن طباخ بول بولز، وهو من نشر بول عدة كتب حكى له مادتها شفويا فقام هو بكتابتها باللغة الإنجليزية. أخبرني مُحَمّد بأن بول بولز في ذلك اللقاء، قد سأله:

ـ هل لديك حكايات تحكيها لي حتى أكتبها بالإنجليزية؟

جازف محمد بالرد:

ـ لدي حكايات كثيرة، ولدي سيرة ذاتية كتبتها بالعربية.

أعجب بول بولز بحكايات شكري، وقد ترجم بعضها إلى الإنجليزية، ونشرها في مجلتي "بلاي بوي" وأنطيوس" (ومعناها السرة)، وتقاضى محمد على كل قصة مبلغ ٥٠٠٠ درهم، وهو مبلغ كبير في تلك الفترة من بداية السبعينات.

أما سيرته فكان لم يكتبها بعد، لكنه جازف بإخبار بول بولز بأنه قد كتبها، فطلب منه أن يأتي بها في الغد. لم يخلف محمد وعدا، فقد كان يكتب في الصباح فصولا من سيرته، وفي المساء يذهب إلى بيت بول بولز أيام كان يقيم في فيلا في الجبل الكبير ليعملا على ترجمة ما كان شكري قد كتبه في صباح ذلك اليوم. أيام مضت على ذلك النحو. وأنا كنت حاضرا مع شكري في "مقهى السنطرال" وهو يكتب كل صباح، أقرأ في كتاب بعد أن أتصفح الجرائد. وفي المساء كنت أتجول في "ورد أحرضان" أو في "الميناء" إلى أن يفرغ محمد من عمله مع بول بولز فيأتي لنبدأ مغامراتنا الليلية.

لم يخطر ببالي وقتها أن أسأل شكري كيف كانت تتم الترجمة، وكل ما أفترضه هو أن شكري كان ينظر في أوراقه التي كتبها في الدفتر المدرسي، ثم ينقل معنى فقرة من الفقرات إلى الإسبانية، ليترجمها بول إلى الإنجليزية. ويحتمل أن يكون محمد المرابط، الذي كان يتقن الحديث بالإنجليزية، قد تدخل لنقل بعض العبارات أو الجمل إلى الإنجليزية، ليتصرف فيها بول بطريقته.

كل ما أعرف، هو أن شكري كان يكتب في الصباح، ويذهب في المساء إلى "الجبل الكبير" قاصدا فيلا بول بولز من أجل ترجمة ما كتبه في الصباح. لكن

الترجمة كانت تتم، بالتأكيد، انطلاقا من نص مكتوب بالعربية، هو الذي كتبه مُحَمَّد بمحضري على أوراق تلك الدفاتر المدرسية. هذا أكيد، وما ليس أكيدا هو كيف كانت تتم الترجمة، مادام بول بولز لا يعرف العربية، وما دام شكري لا يعرف الإنجليزية، أو الأمريكية بالأحرى، لأن ثمة فرق بينهما.

الغموض الذي أحيطت به الترجمة، وتدخل مُحَمَّد المرابط في الموضوع، هو الذي أدى لدى الكثيرين إلى سوء فهم لحالة مُحَمَّد شكري، إلى درجة أن اعتبره البعض حكواتيا مثله مثل مُحَمَّد المرابط، ويتعزز رأي هؤلاء بأن شكري قد قام بالفعل، بحكي حكايات ذات طبيعة جنسية مثيرة، هي التي نشرها بول بولز في مجلة "بلاي بوي" الأمريكية ذات الطبعات القياسية التي تعد بالملايين، فتقاضى عنها شكري خمسة آلاف درهم، في ذلك الوقت. وفي ذلك الوقت كنا ننشر قصصنا القصيرة بالمجان، في المجلات العربية وفي الملاحق الثقافية للجرائد المغربية، ولذلك كان شكري يفخر، بأنه قد بدأ ينشر عالميا، وبأنه يتقاضى ذلك المبلغ الكبير على نشر قصة واحدة.

كان أمرا غريبا في تلك المرحلة، أن يلجأ كاتب مغربي، إلى النشر في مجلة "بلاي بوي" التي تخاطب المخنثين والجنسيين المثليين.

قلت إنها كانت خصومة غير معلنة، فقد كان مُحَمَّد شكري عزيزا على الجميع، ومجالسته لا تتطلب من أحد أن يحاسبه على شيء، أو أن يشاكسه، بل إنها تتطلب الاستمتاع بالحديث معه.

هكذا ظهر كتابه، سيرته، في طبعته الإنجليزية بعنوان لاشك أن واضعه هو المترجم بول بولز: "من أجل الخبز وحده".

وكان مُحَمَّد شكري قد أرسل النسخة العربية إلى "دار الآداب" في بيروت،

وشخصيا، إلى صاحبها الدكتور سهيل إدريس، فاعتذر له عن نشرها.

ثم كان اللقاء الذي دبره مُحَمَّد برادة بين شكري والطاهر بنجلون، والذي أسفر عن ترجمة فرنسية تبنتها دار فرنسية مشهورة، وهي التي حملت عنوان: "الخبز الحافي".

من "من أجل الخبز وحده"، إلى "الخبز الحافي" بقيت سيرة مُحَمَّد شكري المتمردة تبحث لها عن عنوان، وكان أن غير شكري عنوان سيرته فجعلها: "الشطار"، لينسبها إلى الأدب الشطري، وهو أدب الفئات المهمشة في المجتمع.

ثمة خلط كبير بين حالة شكري وحالة "الحكواتيين" أو "رواة طنجة"، فمحمد شكري بدأ كاتبا باللغة العربية، وقد تعرفنا عليه في نهاية الستينات وهو ينشر قصصه القصيرة في الملحق الثقافي لجريدة العلم، كما نشر في الفترة نفسها بعض قصصه القصيرة في مجلة الآداب البيروتية، وبها أيضا نشر دراسته المطولة، التي أسماها: "البطل والخلاص" وفيها يستعرض تجارب أبطال الأساطير وأبطال الروايات العالمة، بثقافة واسعة ورؤية عميقة لمفهوم البطل.

لا يمكن اعتبار مُحَمَّد شكري أديبا شفويا، فزيادة على ما ذكرناه، لم يكن شكري أميا كما هو حال "رواة طنجة". ومن المؤسف أن يقع أدباء مرموقون من أصدقاء شكري في الخلط نفسه وأن يروجوا له، هم من وجدوا فيه الأديب الذي يكتب بقلمه والذي يمتلك ثقافة واسعة ومعرفة بالأدبين العربي والعالمي.

هناك جانب آخر، يرجع إلى ارتباط شهرة مُحَمَّد شكري بسيرته "الخبز الحافي"، تلك السيرة التي غطت على أعماله الأخرى، بل إن عموم القراء قد افتتنوا بهذه السيرة واعتبرها نموذجا للأدب الجريء، بينما أثارت حفيظة فقهاء الظلام فطالبوا بمنعها وجاء المنع من قبل وزارة الداخلية استجابة لطلبهم، وبذلك انطبق على سيرة

شكري ذلك القول المأثور: "كل ممنوع مرغوب فيه"، حتى إن السيرة أصبحت تباع في السوق السوداء وبلغ عدد نسخها المطبوعة عشرين ألفا، بمعدل خمسة آلاف نسخة لكل طبعة، ثم تهافتت عليها دور النشر العربية، بعد أن ترجمت إلى أكثر من عشرين لغة عالمية، وتحولت إلى شريط سينمائي أخرجه مخرج جزائري.

أذكر أننا في فرع اتحاد كتاب المغرب بفاس، أيام كنت كاتبا عاما له، استضفنا شكري في لقاء مفتوح مع الجمهور، فوجدنا أن القاعة التي تتسع لمائتي شخص يتزاحم عليها أكثر من عشرة آلاف، حتى صعب علينا إدخال مُحَّد إلى القاعة وسط تزاحم شديد. وعلى سبيل المقارنة، فقد سبق لي أن استضفت شكري ليشارك في قراءات قصصية مع الزملاء القصاصين الوافدين على فاس من مدن أخرى، فما كان يحضر تلك القراءات أكثر من خمسين نفرا، أما في ذلك اللقاء المفتوح معه فقد امتلأت القاعة وتكدس الجالسون على الأرض بين الصفوف وامتلأت الممرات وحتى الفضاء الذي يوجد خارج القاعة امتلأ بمن لم يجدوا لهم مكانا.

من جانب آخر، وحيث اعتبر بعض الناس سيرة شكري نموذجا مثاليا، فقد التقيت بعشرات الأشخاص الذين عبروا لي عن رغبتهم في أن يكتبوا سيرتهم، "على غرار سيرة شكري"، فكنت لا أجد ما أرد به، علما مني بأن الظروف التي توفرت لشكري لا يمكن أن تتوفر لغيره، كما كنت ألمس طمعا في ثروة وهمية يتوقع أن يحصل عليها هؤلاء إذا ما ترجمت سيرهم إلى اللغات العالمية. ما يهم من هذا الوضع، هو أن شكري قد جعل المقهورين في طفولتهم، وما أكثرهم، يرغبون في الشهادة على بؤس تلك الطفولة، بالجرأة التي لا تراعي الأخلاق والمواضعات. وربما يكون نموذج "الخبز الحافي" قد فَرَّخَ العشرات من السير التي كتبها من عاشوا تجاربها المرة، دون أن يفلحوا في توصيلها إلى القراء، ربما!

مع هذه الشهرة التي حظيت بها سيرة مُحَّد شكري "الخبز الحافي"، فقد وجدت كثيرا من القراء الذين رأوا في السيرة ضعفا أدبيا كبيرا، وأن الملفت فيها هو خصوصية التجربة الطفولية التي تسردها بكثير من الجرأة. كما قيل لي إن ترجمتها إلى الفرنسية، من قبل الطاهر بنجلون، قد أضفت عليها قيمة مضافة من لغة الشاعر المترجم ومن حسه الجمالي والتعبيري.

كان شكري يطلعني على ترجمات كتبه وبعض المقالات التي كتبها الأجانب بالإنجليزية عنها وكنت أبارك له ذلك. حتى نسخة من ترجمة "الخبز الحافي إلى العبرية أطلعني عليها وهو ينتظر مني شيئا من التعليق. عندما لاحظ صمتي قال لي:

. هم طلبوا مني الترجمة وأنا وافقت. هل أنا في وضع غير الذي وجد فيه نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وعشرات الكتاب العرب. المسألة بكل بساطة أنهم أرادوا أن يقرأوا أدبنا كما نريد نحن أن نقرأ أدبهم.

يلاحظ صمتي وعزوفي عن الخوض في موضوع قد ينغص فرحنا باللحظة، فيقول:

. ومع ذلك فهم شيالكة، لم يدفعوا إلا قليلا من المال.

كثيرا ما كان الكيل يطفح بمحمد، سيما بعد أن منعت وزارة الداخلية "الخبر الحافي" بتدخل قوي من التيار الإسلامي، وبعد فتوى التكفير التي أصدرها الخميني في حقه.

قبل ذلك كنا نستمع إلى صوت مُحَّد شكري في القاعات العمومية وهو يرد على من يتهمونه بالمروق والخروج عن الأخلاق بكثير من التوتر، وكان يطرح عليهم هذا السؤال: هل الكاتب هو من خلق الفساد الاجتماعي والسياسي في حياة الناس أم أنه فقط، يصف مظاهر هذا الفساد؟ كثيرا ما عشت معه نقاشات

من هذا النوع، في قاعات ثقافية، وخاصة في "دار الشباب البطحاء" بفاس، التي كنت أدعوه ليقدم فيها قراءات قصصية تعقبها مناقشة تستبعد الأدب وجمالياته ودلالاته وتدخل في مزايدات من قبل بعض الإسلامويين، كما كانت من قبل، تدخل في مزايدات من قبل شباب متياسرين.

كان مُحَمَّد منتبها إلى هذه المسألة، وكان يقول: "كما أعيش أتكلم. وكما أعيش أكتب". موضحا أنه لا يعاني من أية عقدة تجعل الإنسان يُجَمِّلُ ما هو قبيح. أما المحرم الاجتماعي فكان يقول عنه: "أنا لست مسؤولا عن وجوده، لكني لا أسكت عنه، وأتحدث عنه كما هو في الواقع. على من يريدون من الكتاب ألا يكتبوا عن العاهرات أن يخلقوا عالما لا توجد فيه العاهرات. وعلى من يعتبرون وصف قسوة الأب عقوقا أن يُنشئوا مجتمعا كل الآباء فيه رحماء بأبنائهم، وعلى من يطلبون من الذين يعيشون (أو عاشوا) في الهامش الاجتماعي أن يعيشوا كالملائكة أن يصنعوا لهم ذلك العالم الذين يعيشون فيه كالملائكة، وعلى الذين يُكَفِّرُون من يتحدث عن الحياة بما فيها من مرارة وقسوة من القساة أن يأخذوا جنتهم، أما جنة الله فهي لمن يشاء".

كل الأدباء والمفكرين والمؤرخين المغاربة، بما فيهم عبد الكريم غلاب،مُحَمَّد برادة، المرحوم أحمد المجاطي، مُحَمَّد عابد الجابري، عبد الله العروي،عبد الكبير الخطيبي، ومن دنا من مكانتهم الفكرية والأدبية أو ابتعد عنها، لم يحصلوا من وزارة الداخلية المغربية على قبول عبارة "كاتب" في الخانة المخصصة للمهنة، ما عدا مُحَمَّد شكري الذي استطاع أن يحصل بطاقة وطنية تعترف بالمهنة: "كاتب". أما الآخرون فكانوا غالبا ما يكتب في خانة مهنتهم: "أستاذ" أو "أستاذ جامعي"، أو "صحفي"، أو ما تعتبره وزارة الداخلية المغربية مهنة، أما "كاتب" فليس مهنة، وإنما الأمر يتعلق بهواية كالصيد والقنص والغوص وغيرها.

كان شكري قد أقنع إدارة وزارة الداخلية، بأن الكتاب من أمثاله في أوربا وفي كل دول العالم، الذين يحصلون على دخلهم المالي الرئيس من الكتابة الأدبية وترجمات أعمالهم، هم كتاب، وليسوا عاطلين، مثلا، أو بدون عمل، كما شاعت العبارات التي كانت تُكتب في خانة المهنة لبعض المواطنين.

ظل شكري يفاخر بأنه هو الكاتب المغربي الوحيد، الذي أقنع وزارة الداخلية المغربية بأن تضع في خانة مهنته على بطاقته الوطنية: كاتب.

لعل كتابا آخرين لم يعبأوا بهذا الأمر، وأنا من بينهم، فلم يخوضوا ذلك النضال الذي خاضه شكري، أو حتى، لم يطالبوا بذلك. والسبب راجع إلى أنه يمتهنون مهنا من قبيل التدريس أو غيره، كما أنهم لا يتعيشون من مداخيل كتبهم المنشورة، وإنما يتعيشون من رواتهم الوظيفية مع الدولة.

ثم إنني أنظر إلى الأمر من زاوية أخرى، وهي أن الكتابة لا يمكن أن تكون مهنة، وإنما هي عشق متى يترك العاشق يتركه، وإن كان عشق الكتابة شديدا فالكاتب لا يتوقف عنها إلا عندما يتوقف وجيب قلبه.

وقت لآية الله الخميني

أصدر آية الله الخميني في آخر أيام حياته فتوى بتكفير سلمان رشدي والباحثة المغربية فاطمة المرنيسي وكان الثالث في هذه الفتوى هو مُحَمَّد شكري. وبالرغم من أن شكري لم يكن لتصدر عنه أية تصرفات تستفز التكفيريين، فقد وصل خبره إلى إيران، وإلى آية الله الخميني بالذات، وهو المرشد الديني الأعلى الذي عاد من منفاه في فرنسا إلى إيران بعد قيام الثورة الإسلامية وسقوط نظام حكم الشاه.

تقبل شكري الأمر بهدوء. وحينما دعي إلى قسم للشرطة، وسأله الضابط:

. هل تحتاج إلى حماية؟

أجاب على الفور:

. كلا. أنا لم أفعل شيئا لأحد. وإن أرادوا أن يهدروا دمي فلن تنفع أية حراسة. ثم إنني لا أطيق أن أعيش وبرفقتي حارس.

وقع على محضر تخليه عن رغبة الدولة في حمايته، وانصرف ليعيش كما كان يعيش. لم يكن شكري موسوسا تجاه احتمال تصفيته جسديا من قبل متطرفين إسلامويين، بل كان يستخف بالأمر، حتى مع أنواع من الترهيب التي كان بعض رفقائه يرهبونه بها. كان يقول لي:

. هو الموت واحد، ولا يحدث إلا مرة واحدة، ومهما كانت أشكال حدوثه فهو الموت.

أقول له:

. الموت ليس هو القتل يا مُحَمَّد.

يقول لي بحسم في الموضوع:

. إذا كان القتل يؤدي إلى الموت فهو وسيلة لغاية، وهو يذكر دائما بقابيل.

يضحك، ويقول لي:

. وجدت شاعرا أخطأ في قصيدته عندما ذكر أن هابيل هو من قتل أخاه قابيل، بينما قابيل هو الذي قتل أخاه هابيل. حرف القاف يجمع بين قابيل وبين القتل.

كنت أسأل عنه النادل المغربي في "مطعم الدورادو" فيرد علي:

. لم يعد يأتي إلى المطعم، خوفا على نفسه من آية الله الخميني. ليتهم قتلوه

وأراحونا منه.

يكون النادل الآخر، اليهودي الإسباني، كارلوس، قد سمع ما قاله زميله، فيتدخل في الحديث ويسأله:

. ولماذا يقتلونه؟ وأنت لماذا تريد أن تستريح منه؟ هل سبق له أن أزعجك أو أساء إليك بشيء، أو أهانك كما يفعل معك بعض الزبائن؟

يبدو كارلوس متوتر الأعصاب. يقول لزميله:

. لا تنس أن السيد صديق له، أتى معه إلى هنا عدة مرات، ومن قبيل احترام الزبائن ألا نذكر أصدقاءهم بسوء.

وقت للأدباء العالميين

جون جونيه

في بداية السنة الدراسية لعام ١٩٧٠، عينت مدرسا بثانوية تقع في قرية المنزل، التي تبعد عن فاس بحوالي ستين كيلومتر، وعن مدينة صفرو بحوالي العشرين. كان عمري اثنين وعشرين عاما، وأصغر تلاميذي كان في السابعة عشرة، أما أكبرهم فهو في مثل سني، وخاصة التلميذات اللواتي كن يرتدين الجلابيب ويكشفن عن أثدائهن من فتحاتها. كان لابد أن أحكي لشكري ورطتي في هذا التعيين في رسالة كما حكيتها لأصدقاء آخرين. كنت في المساءات أخرج للتجول بين الحقول، متأملا ألوان السماء الملبدة بسحب الخريف ومستنشقا لرائحة الأرض، فكنت خلال تلك الجولات ألتقي مع رجل أجنبي الملامح، يرافقه مغربي، وهما يسيران بين الحقول. بل تعني صورة ذلك الأجنبي أي شيء بالنسبة لي، ربما لأنني لم أتطلع إلى سحنته جيدا، ولم أتوقع أن يكون هو جون جونيه، الذي كان اسمه ككاتب ملعون ملأ الفضاء الثقافي الأوربي في ذلك الوقت،

بفضائحيته وبكونه مهمشا يدافع عن حياة المهمشين. لكن جون جونيه لم بكن كذلك وحسب، بل كان أديبا فرنسيا مرموقا، كان لا يبالي بالشهرة، لكنه وصل إليه عبر وضعين: أحدهما يتعلق بنموذج الحياة التي يعيشها، وهو نموذج خال من المفاهيم الأخلاقية المتداولة في المجتمع الفرنسي، والثاني يتعلق بكاتب كتب للمسرح الفرنسي أعمالا إن لم نقل إنها قد خربت معنى القيم الاجتماعية فيمكن أن نقول إنها قد أحدثت نوعا من الثغرة في هذه القيم قصد تجديدها.

لسنا الآن بصدد قراءة مسار وتجربة جون جونيه، لكننا بصدد علاقته بمحمد شكري، وهي علاقة استثنائية، بإمكانها أن تضيء على مستوى الثقافة العالمية معنى أن يكون هناك هامش للممارسة العيش وهو الهامش نفسه الذي تسيطر قيم وأفكاره وهواجسه وتجاربه اليومية على الكتابة. ولا عجب. فقد تماهت شخصية مُحَمَّد شكري مع شخصية جون جونيه دون قصد. أقول دون قصد من أحدهما، بل إن تجاذبا طبيعيا، بين أديب مغربي اشتغل في كتاباته على فضاء الهامش، وبين أديب فرنسي شغلت كل كتاباته المسرحية فضاء الهامش، لا يمكن إلا لقاء يتجاوز المصادفة إلى شيء أبعد منها، وهو أن التجارب المحلية مهما أغرقت في محليتها وتفاصيلها فإنها تجد لها مشتركا في محلي آخر، يختلف فيه الفضاء، وتختلف الأسماء والشخصيات والعوالم، لكن ما يوحد بينها هو المعاناة الإنسانية. لذلك أجد أن توأم مُحَمَّد شكري، المغربي، في الثقافة الأوربية، هو جون جونيه، والمشترك بينهما هو قيم التمرد، والرفض، وإعادة الاعتبار إلى الذات بعد أن أنكرها أو شوهها المجتمع، وفي النهاية، التحرر من القيم المشاعة واعتبار الحياة مجرد لحظة فرح تحضر داخل أوضاع مأساوية، ولذلك يجب الفرح بتلك اللحظة التي يمكن أن تتحول إلى لحظات.

ربما تكون هذه هي السمات المشتركة بين حياة مُحَمَّد شكري وأدبه وبين جون

جونيه وأدبه. غير أن لقاء غريبا قد جمعهما، في طنجة، وفي "مقهى السنطرال" على سبيل الصدفة، فلا أدري كيف كان اللقاء الأول بينهما، وكيف تعارفا، أقصد، كيف عرف شكري جول جونيه، هل من معرفته بصورته في الجرائد والمجلات، أم من حدس باطني كان يوجه العلاقة بين كاتب طنجاوي يعيش تجربة ألم في الحياة والكتابة معا أم من شيء من المخاتلة واقتحام الآخر، كما كان شكري يفعل، وهو ما فعله في نفس المقهى مع تينسي وليامز؟

عموما، فقد حدث ذلك الصعق الكهربائي، غير المفهوم، الذي كان يشكل نوعا من الجاذبية بين جون جونيه ومُحَمَّد شكري.

عينت مدرسا في "ثانوية المنزل"، وهي قرية لا تبعد عن فاس، مسقط رأسي، إلا بستين كيلومترا، لكنها لا تتوفر على محل لبيع الخبز، فكل الساكنة يخبزون خبزهم في بيوتهم، ولا على فندق، وما بها سوى سوق أسبوعي تباع فيه الخضر والفواكه، ثم إن الثلج يغمر أرضها لثلاثة أشهر من السنة. كان بها مدرسون فرنسيون وكان من بينهم صديقي المسيو "ميشيل كَرو" الذي كان صديقا للمناضل اليساري عزيز بلال كما كان صديقا للكولونيل اعبابو الذي شارك بدور أساسي انقلاب الصخيرات ضد الحكم الملكي. ومناسبة ذكر المسيو "ميشيل اكروا" في هذا الحديث ترجع إلى تجربة عشتها في "المنزل" وحكيتها له، فعلق عليها.

كنا أنا وصديقي الفرنسي مشيل نخرج كل مساء للتجول في الحقول المجاورة للقرية، كما كان يفعل موظفو البريد والقيادة وإدارة الماء والكهرباء، فما كان من متنفس يجتمع فيه هؤلاء سوى مسيرات مسائية إن أسعف الطقس بها، وخلال تلك المسيرات لاحظ كل كن بسير فيها شخصا أجنبيا، يبدو أنه فرنسي، رأسه ضخم وقامته مديدة، وهو يقارب الستين. خلال انغماسنا في الحديث أنا ميشيل

كنا نكتفي ببعض النظرات إلى ذلك الرجل الفرنسي الملامح وإلى مرافقه المغربي. ولم يدر أي واحد منا أن ذلك الرجل الفرنسي هو جون جونيه، وأن مرافقه المغربي هو معشوشه، ومن يعيش معه في علاقة غرامية تشبه الزواج. كنا نلتقي معهما ذاهبين أو آيبين فلا نبالي بالأمر.

جاءتني رسالة من مُحَمَّد شكري، يخبرني فيها بأن جون جونيه يوجد في "المنزل"، التي جاء إليها مع معشوقه الذي ينتمي إلى هذه القرية.

في مساء تلك الليلة التي وصلتني فيها الرسالة، أتيت إلى بيت صديقي ميشيل كروا، فأخبرته بأن جون جونيه يوجد في مرتيل. يبدو أن الاسم لم يعن له شيئا. لم يرد بشيء. لكنه تواعد معي على أن نخرج في مساء الغد إلى الحقول. أول ما التقيت به كان قد وفر لنفسه الكثير من المعلومات عن جون جونيه. وصفه بأنه كاتب فرنسي كبير، وحدثني عن مسرحياته وعن جنونه ككاتب. سألته:

ـ هل هو شاذ جنسيا؟

احمر وجهه وبدا مرتبكا، ثم قال لي:

ـ ذلك شأنه، أما شأننا منه فهو ما يكتب.

استغربت للتوتر الذي ظهر على ميشيل. فيما بعد علمت أنه هو الآخر شاذ جنسيا، لكنه يمارس ذلك بتستر كبير.

في الحقول لم نلتق مع جون جونيه وصديقه اليازغي (نسبة إلى بني يازغة، سكان قرية المنزل وما جاورها). اتصلت بمحمد بالهاتف وسألته عن جون جونيه فأخبرني بأنه هو ومعشوقه قد ذهبا إلى العرائش.

بعد وقت التقيت بشكري فأخبرني بأنه بصدد كتابة مذكراته مع جون جونيه.

باركت له ذلك. قال لي:

. هل تعرف أن جون جونيه هو من سعى إلى التعارف معي؟ لم أكن كاتبا مشهورا. ربما جذبته إليّ سحنتي أو شيء من هذا القبيل.

ثم قال لي:

"بدأت أكتب المذكرات على الحاسوب، وسأبدأ من لحظة اللقاء الأول في "السوق الداخل"، ومن أول لقاء دخلت معه في حوارات حول الأدب وحول الحياة. أعجبته جرأتي، ورفضي للقيم الجاهزة التي تحاصر حياتنا كل يوم. هذا بدأت قصة علاقتي مع جون جونيه".

كل من مُحَمَّد شكري وجون جونيه كاتبين كلاهما عاش مغامرات شطرية في الحياة، وكلاهما انقطع عن الكتابة لسنوات طويلة، وكلاهما رافض للقيم الأخلاقية والمواضعات الاجتماعية، وكلاهما لم يدخل مؤسسة الزواج بما تحيل عليه من انخراط واسع في مجتمع يتطلب الكثير من النفاق.

كلاهما، عاش محتفلا به، ومات محتفلا به، لكنهما معا، كانا يفضلان شيئا واحدا، هو أن يلاحقا سرب حمام يذهب نحو البعيد، وهما يذهبان معه نحو البعيد.

تنسي وليامز

أخبرني مُحَمَّد ذات لقاء به في طنجة بأنه قد التقى مع الكاتب الأمريكي تنسي وليامز، لقاء الصدفة أيضا، في "مقهى السانطرال" ب "السوق الداخل". قال لي:

"لم أكن أعرف أنه هو تنسي وليامز. كنت جالسا في مقهى "السوق الداخل"، وأمامي على المائدة كأس من الشاي الأسود. رأيت رجلا وامرأة، تجاوزا

الستين، من سحنتهما عرفت أنهما أمريكيان. كانا لا يتحدثان ويستسلمان إلى شمس خريفية تأتي إليهما من سماء خريفية مشمسة. فجأة، خطر على بالي أن أتحدث معهما. قلت للسيدة:

ـ هللو!

ردت علي:

ـ هللو!

رأيت السيد عبوسا، يتحاشى النظر إلي. قلت للسيدة بالإنجليزية:

ـ أنتما أمريكيان.

قالت:

ـ ييس.

قلت لها:

ـ أنا كاتب.

ـ سألتني:

ـ هل نشرت شيئا مما تكتب؟

قلت لها:

ـ أنا صديق لبول بولز، وقد ترجم لي بعض القصص ونشرناها في مجلة "بلاي بوي" ومجلة "أنتيوس".

ساعتها انتبه إليّ تنسي. بدا كضفدع يدير عينيه في الفراغ ثم وجه نظراته إلي. قالت لي زوجته وهي تشير إليه:

ـ تنسي وليامز.

قلت لها:

ـ الأديب العالمي الكبير! صاحب المسرحية الشهيرة: قطة على صفيح ساخن؟

قال لي:

ـ أنت مثقف.

لم أرد عليه.

ابتسمت للسيدة. اقتربت منها. أخذت راحة يدها وقرأت لها الكف. بشرتها ببعض البشارات. ضحكت.

قال لي تنسي:

ـ سألتك هل أنت مثقف فلم ترد، ثم ها أنت تظهر كدجال.

قلت له:

ـ أن يهاجمني كاتب عالمي مثلك، فهذا شرف لي.

قالت له زوجته:

ـ تنسي! عليك أن تكون لطيفا مع هذا الرجل. أنسيت أنه قال إنه كاتب؟

بدا هادئا ينظر إلى حركة الشارع، بما يشبه الذهول، ثم قال لي:

ـ في مجال الكتابة، لا يوجد كاتب كبير وكاتب صغير إلا من حيث قيمة ما يكتبان، أما الشهرة فهي تأتي كثيرا للصغار ولا تأتي إلا قليلا للكبار.

قلت له:

. موافق. سعيد بأن أسمع رأيك في علاقة الكتابة بالتلقي وبالشهرة.

أخبرني بالفندق الذي يقيم فيه هو وزوجته، ودعاني إلى أن أتناول طعام الفطور معهما. أول ما جئت إلى الفندق، سألت عن المطعم، وأخبرت بأنني مدعو للفطور على مائدة السيد تنسي وليامز. بدا الموظف متشككا في الأمر. أجرى مكالمة مع غرفة السيد تنسي وحالما اتصل به وافق على أنه سوف يستضيفني على مائدة الفطور، وأنه هو والسيدة سوف يكونان في المطعم بعد خمس دقائق. دخلت المطعم واخترت مائدة للجلوس. سرعان ما جاءا. أقبلا علي. قلت:

. هللو!

قالا:

. هللو!

ثم جلسا. كان تنسي منكس الرأس، يبدو الحزن على سحنته، أما زوجته فكانت مستبشرة مبتسمة، فقالت لي:

. ربما تكون قراءتك لكفي صائبة.

قلت لها:

. قد تكون وقد لا تكون. فأنا أهدف إلى شيء أهم، هو أن أتحاور في مجال الأدب مع الأديب العالمي الكبير السيد تنسي وليامز.

قالت لي:

. ها هو أمامك، تحاور معه كما تريد.

ألبيرتو مورافيا

في مساء من مساءات مدينة أصيلة، أتينا أنا ومُحَمَّد إلى "مطعم القصبة"، بعد أن ارتدى أحسن ما عنده من لباس. كان مضطربا، وقد زاد اضطرابه بعد أن تأخر ألبيرتو مورافيا عن الحضور بأكثر من ساعة. جاء من أكد لمحمد أنه سوف يأتي، ولكن بعد شيء من الوقت. في البداية كنا نجلس وحدنا، أنا ومُحَمَّد، ثم أقبل الأديب الراحل أحمد عبد السلام البقالي لمجالستنا، وبعده جاء الناقد العراقي عبد الجبار داوود البصري والإعلامي شربل داغر وأشخاص آخرون. بدأوا يسألون عن ألبيرتو مورافيا، فقد بلغهم خبر مجيئه إلى المقهى، ليلتقي بشكري، وبطلب منه. هناك من اعتذر عن تأخر الكاتب الإيطالي في الحضور بسبب سنه المتقدم، وأنه قد أصبح ثقيل الحركة، يخطو بصعوبة.

كانت قرابة عائلية ما تجمع بين مورافيا وطوني مارايني الناقدة الفنية الإيطالية وزوجة الفنان التشكيلي مُحَمَّد المليحي، وعن طريقها تمت دعوة مورافيا للمشاركة في مهرجان أصيلة، مشاركة رمزية، لأنه كان شيخا هرما.

أقبل علينا يساعده على المشي أحدهم، فنهضنا للسلام عليه. سأل متحدثا بالفرنسية:

ـ أين مُحَمَّد شكري؟

أجاب مُحَمَّد:

ـ هو أنا.

غير مكان جلوسه ليكون قريبا من مورافيا. تبادلا بعض الكلمات، وشكري يحدثه بالإسبانية. تدخل في الحديث بعض الحاضرين. لم نكن نتصور أن عبد الجبار داوود البصري وشربل داغر قد جاءا لإجراء مقابلة مع مورافيا، ولم يتضح

لنا ذلك إلا عندما وضع البصري آلة التسجيل على المائدة، وبدأ يلقي بعض الأسئلة بالعربية، وداغر يترجمها إلى الفرنسية. أسقط في يد شكري، الذي كان يتصور أن الحاضرين سوف يمكنونه من التحاور مع مورافيا، لكن الأسئلة كان تؤدي إلى الأجوبة، والأجوبة تؤدي إلى أسئلة أخرى، ومن بينها سؤال يتعلق بعلاقة الجنس بالسياسة، أجاب عنه مورافيا وهو يحمل في يده كأسا، مبينا أن الكأس والمشروب الذي يوجد في الكأس هما في توحد كبير، إذ لا يمكن أن يوجد المشروب بدون الكأس، كما أن الكأس لا يكون لها أي معنى، وهي فارغة.

بعد حين همس مورافيا لمرافقه، فنهضا معا. عرفنا أن التعب قد أدركه، وأنه يريد الذهاب. وقفنا لأخذ صور معه، والصورة التي أخذت لشكري مع مورافيا، والتي يظهر فيها مورافيا وهو يرتدي بذلة زرقاء، وقد أحاط عنقه بثوب حريري أحمر، هي التي أخذت لهما في ذلك اللقاء.

الشاعر خوليو

كان شكري يحدثني كثيرا عن شاعر إسباني يقيم في بيت يوجد في الزنقة المقابلة تماما ل"مقهى السنطرال" ب "السوق الداخل"، اسمه خوليو. سألته عن اسمه الكامل، فقال لي:

. لا أعرف له اسما غير خوليو.

أخبرني بأنه ذات صيف كان قد أخذ الأديب مُحَمَّد زفزاف لقضاء أمسية مع الشاعر الإسباني خوليو، ورغم عائق اللغة، فخوليو لا يعرف سوى لغته الإسبانية، وزفراف لا يعرف سوى لغته العربية وشيء من الفرنسية، فقد تحدث زفزاف مع خوليو في استعراض جميل لتجربة الأدب الإسباني من خلال كارسيا لوركا وأنطونيو ماتشادو وشعراء إسبان آخرين، وكان السنيور خوليو مضيافا فقدم لهما

أفخر أنواع الشراب وأحسن الأطعمة التي يعدها له طباخ مغربي هو المسؤول عن الحفلات الخاصة التي ينظمها السنيور خوليو من أسبوع لآخر. حسبتها حفلات عادية ولم أسأل عن طبيعتها. عندما طلب مني مُحَمَّد أن نذهب لقضاء أمسية في بيت الشاعر خوليو لم أتردد. تركنا كأسي الشاي الأسود على مائدة في مقهى السنطرال بعد أن دفعنا للنادل الثمن. دخلنا الزنقة الضيقة. نظر كل واحد كنا إلى الباب. نظر شكري إلى المطرقة ثم طرقها إشعارا بوصول أحد ورغبه في دخول البيت. أطل علينا من نافذة علوية رأس كبير أصلع، تحدث مع شكري الذي أخبرني بأنه هو الشاعر خوليو نفسه، وأنه يعتذر عن استقبالنا، وقد اقترح عليه أن نزوره في وقت آخر. عدنا إلى المقهى فوجدنا النادل لم يسحب من المائدة كأسي الشاي الأسود. قال لي مُحَمَّد:

ـ يبدو أن خوليو قد كان يقيم طقوس حفلته.

سألته:

ـ وما هي هذه الطقوس؟

قال:

ـ مرة كل أسبوع يقيم حفلة جنسية يدعو لها الفحول.

ـ عشرة؟

وليام بوروز

حدثني شكري عن الكاتب الأمريكي وليام بوروز الذي جاء إلى أصيلة فاكترى بيتا في المدينة القديمة، وسط السكان، وكان الوقت صيفا، فأراد وليام بوروز أن يستحم في البحر، لكنه كسل على أن يذهب إلى الشاطئ، فخرج إلى

باب البيت وطلب من بناء أن يحضر مواد البناء، ليبني سورا صغيرا بعلو متر عند باب إحدى غرف البيت. عندما تم إغلاق الباب بالسور و جفافه خرج إلى باب البيت فدعا أطفال الحي لأن يأتي كل واحد منهم من بيته بسطل وأن يذهب إلى البحر ليملأه ثم يأتي به ليصبه في الغرفة، وسوف يتقاضى على ذلك خمسة دراهم، ليعود إلى البحر مرة أخرى كي يملأ سطله، وأن يدعو أطفال الحي الآخرين لأن يفعلوا مثله. قال شكري، والعهدة عليه، إن مبلغ الخمسة دراهم، قد أغرى أطفال وفتيان أصيلة، فتكاثر ذهابهم وإيابهم بين الشاطئ وبين بيت وليام بوروز، بالسرعة المطلوبة، إلى أن امتلأت الغرفة بماء البحر، فسبح فيه وليام عاريا تماما، وكانت رغبته في أن يسبح عاريا هي التي دفعته لأن يفعل ما فعل، فضلا من الحشيش ومفعوله.

يختم شكري الحكاية بأن البيت قد تهدم بأكمله، مما اضطر وليام بوروز إلى أن يخرج من تحت الأنقاض، عاريا، إلى الشارع.

وقت لمجنون الورد

كان شكري شديد الحرص على نظافة جسده، فقد كان يستحم ويحلق ذقنه ويغير ملابسه كل يوم.

عندما كنا نزوره في بيته خلال فترة السبعينات، أنا وبعض أصدقائه، فقد كان يرحب بنا، ثم ينظر إلى أحذيتنا بنظرات فيها كثير من الريبة. يقف أمامنا حائرا، ثم يقول لنا:

ـ من فضلكم، هل يمكن أن تنزعوا أحذيتكم وجواربكم، وأن تغسلوا أقدامكم في الحمام؟

منا من كان لا يحب أن يشاكس شكري فيفعل ما طلبه، ومنا من كان لا

يرضى بأن يمتثل لأوامر شكري التي تحث على نظافة القدمين. كان يقف مثل عسكري، يرقب من يستجيبون لرغبته ومن يعصونها. من يغسلون أقدامهم يجدون الكثير من المعطرات والمعقمات في حمام شكري، ومن لا يغسلون أقدامهم، يأتي مُحَمَّد برشاش من تلك الرشاشات المعطرة للجو فيرش على قدميه، رشا متواصلا، وهو يقول له:

. سامحني. لا أحب الروائح الكريهة في بيتي.

مرة قلت له:

. يا مُحَمَّد، لا توجد روائح كريهة. هل أنت تشم أفضل مني؟

قال لي وهو شديد الارتباك:

. أنا أعاني من وسواس النظافة.

قلت له:

. إنك تحتقر ضيوفك عندما تطلب منهم أن ينزعوا أحذيتهم وجواربهم ويذهبوا إلى الحمام لغسل أرجلهم.

قال:

. تلك الفوطات التي ينشفون بها أقدامهم، أتركها لفتحية، لكي تغسلها.

ثم قال لي:

"في يوم من الأيام، دخلت حانة من حانات البيانو بار في طنجة، فجاءت فتاة جميلة تبيع الورد. اشتريت منها وردة. لم أجد لمن أهديها. شممت رائحتها. فكرت في أن تلك الرائحة الطيبة يمكن أن تُذهب روائح ما في البطن. نزعت ورقة من الوردة. أكلتها. نزعت ورقة أخرى. بدأ بعض رواد الحانة يتابعون ما

أفعل. سمعت أحدهم يقول عني للآخر:

. يأكل الورد!

رد عليه رفيقه:

. مجنون!

من ثمة جاءت العلاقة بين الجنون والورد. أقبلت بائعة الورد فاشتريت منها وردة أخرى، أكلت أوراقها، ثم اشتريت منها ثالثة، وأكلت أوراقها جميعا. لم أكن أعرف أنني سوف أصاب بالتسمم، لكني تسممت".

قلت له:

.كان ذلك ثمن عنوان جميل لمجموعتك القصصية: "مجنون الورد".

وقت لمطعم أليسيا

أخذني شكري إلى ذلك المطعم. باحة واسعة عليها موائد وكراس، وعلى كل مائدة مزهرية بها بعض الورود. أناس يتناولون طعامهم. عندما جلسنا إلى إحدى الموائد، قال لي:

. هذا المطعم، يقدم للزبائن ثلاثة صحون، سلاطة وعدس أو حمص حسب الاختيار، ولحم أو سمك أو دجاج حسب الاختيار كذلك.

جاء النادل فوضع أمامنا سلاطتين وغرافا مليئا بالماء وكأسين. قال لي مُحَمَّد:

. أخبره بما تختار.

قلت:

. عدس وسمك.

قال له:

. وأنا مثله.

ثم قال لي:

. وهذا المطعم يقدم كأسا مجانية من النبيذ، والكؤوس التي بعدها تؤدى.

بعد أن أكلنا وشربنا قال لي:

. تعال لنسلم على السنيورة أليسيا صاحبة المطعم.

سرنا نحو غرفة تُسدل على بابها ستارة. وقف شكري وقال لي:

. لا أحد يقتحم عليها غرفتها.

ثم قال:

. سنيورة أليسيا. بوينوس دياس.

عرفت صوته، فردت:

. بوينوس دياس. شكري.

أذنت له بالدخول. أخبرها بأن معه كاتبا مغربيا جاء من فاس، فدعته للدخول هو ومن معه. وجدنا الغرفة مفروشة على الطريقة المغربية، حيث الحيطان مغطاة بثوب "الحيطي"، وامرأة في السبعين، في غاية الأناقة والتزين، شعرها الأشقر يشكل هالة فوق رأسها، قد يكون باروكة، تجلس إلى مائدة عليها قارورة وعدة كؤوس. قدمني شكري لأليسيا. سلمتُ عليها. طلبت منا أن نجلس. دخل معها في حديث طويل بالإسبانية، فلم أفهم من موضوعه شيئا، لكني أدركت حميميته وأنه صادر من الأعماق، ومن احترام متبادل. قدمت لنا كأسين وصبت لنفسها كأسا، ثم طال الحديث بينهما. قدمت لنا كأسين آخرين. التفت شكري

نحوي وقال لي:

. لا تقلق. سنذهب بعد قليل. هذه السيدة تحتاج إلى مواساة، وأنا أواسيها.

حينما أردنا الانسحاب، انحنى شكري على يد أليسيا وقبلها. بعد خروجنا قال لي:

. عندما قبلت يدها، احتراما، زرعت في نفسها ما كانت تشعر به من فخار وكبار الضباط يقبلون يدها.

أخبرني بأن المطعم كان في أيام طنجة الدولية يغص بربابنة البواخر وضباط الجيوش وأصحاب البزنس، أما اليوم فقد تحول إلى مطعم شعبي يرتاده عمال الميناء وبعض العابرين. لذلك كانت تندب حظها وتتمنى لو أنها لم تعش كل هذا العمر لترى أفول نجمها ونجم مطعمها. ثم قال لي:

. ومع ذلك، فقد تلقت عروضا من بعض المغاربة لشراء المطعم، فرفضت بيعه.

ثم ضحك وقال:

. ومن الشبان المغاربة من عرضوا عليها الزواج، حتى وهي في هذه السن، ليستولوا على المطعم، أو يرثوه بعد وفاتها.

بعد ذلك الزمن السبعيني، وما صار إليه المطعم، أصبحت كلما صعدت "أدراج الميريكان" ونظرت إلى السينما التي تحولت إلى مقهى ومطعم، ومضيت خطوات عند بداية الزقاق، إلا وأنظر إلى "مطعم أليسيا" فلا أرى سوى باب خشبي يعلوه التراب، وما من شك في أنه قد تعرض للخراب.

وقت للسفر

في سنة ١٩٧٣ وصلتني رسالة من مُحَمَّد برادة من باريس يحدد معي فيها موعدا للقاء به في الرباط. أخبرت شكري بهذا الموعد، وطلبتُ منه أن يأتي إلى فاس ليقضي معي بعض الأيام، ثم نذهب إلى الرباط.

يومان قضيناهما في فاس، تعرف شكري خلالهما على العديد من أصدقائي، ثم ذهبنا إلى القنيطرة، لنبيت في بيت جدي مولاي أحمد العلوي رحمه الله. عرفتُ شكري على جدتي المرحومة لالة أم كلثوم. كما كان لطيفا مع أليسيا صاحبة المطعم فقد تلطف مع جدتي. كان لبقا في الحديث، مهذبا، يتقن المجاملة، بخلاف الكاتب إدريس الخوري الذي استضفته في نفس البيت، فأطلق لسانه بكلمات بذيئة أمام جدي، ونحن على مائدة الطعام، ثم صار يأخذ لباب الخبز ويمسح به شاربه ولحيته، مما أخجلني أمام جدي.

حال خروجنا أنا ومُحَمَّد أوصتني جدتي بألا نتأخر، فالعشاء سيكون جاهزا في التاسعة ليلا. قصدنا "الفيلاج" حيث المقاهي والحانات والملاهي الليلية. لم يطل جلوسنا في إحداها، فقد كان شكري هو من ينبهني إلى موعد العشاء، ويلح على أن نحترمه، حتى لا تغضب منا جدتي.

في صباح الغد، ركبنا سيارة تاكسي أخذتنا إلى الرباط. أجريت مكالمة مع برادة، حدد لي خلالها مكانا للقاء. لم أخبره بأن شكري سوف يكون معي، وقد تركت ذلك مفاجأة له. التقينا في "مقهى القصبة" المطل على المحيط الأطلسي. جمعتنا الحميمية والمحبة. أخرج شكري من حقيبته اليدوية تلك الدفاتر المدرسية التي كان قد كتب عليها "الخبز الحافي" وأخذ يقرأ منها بصوته الجهوري، متفصحا، وبرادة يصغي إليه، لكنه أطال في ذلك. لم يقاطعه برادة، الذي كان يستكشف عوالم سيرة شكري وتفاصيلها ومساراتها. دار الحديث بينهما. تحدث شكري عن

أنه ظل أميا إلى حدود العشرين من عمره، وأنه قد امتهن عدة مهن، وتعرض لتلك اللحظة التي وقف فيها في الميناء على الرصيف، فرأى أحد البحارة يأكل من سندويتش محشو باللحم، ثم رمى بنصفه في الماء. كان شكري جائعا، فنزع حذاءه وألقى بنفسه، غاطسا، ولما رفع رأسه وجد في مكان السندويتش كتلة من الخراء. بدا الإعجاب على برادة، وأخذ يسأل شكري بعض الأسئلة عن علاقته بالكتابة، وشكري يوضح من خلال أجوبته. تم ذلك في جو ودي، لم يكن من قبيل امتحان يجريه أستاذ مع تلميذ، لذلك أصبحا صديقين، فقدم شكري لبرادة عنوان سكناه وعنوانه البريدي، وقدم برادة لشكري عنوانه البريدي ورقم هاتفه.

بتنا في أحد الفنادق الرخيصة، وفي الصباح أفطرنا في مقهى ثم جلنا في المكتبات، وزرنا أصدقاءنا في السفارة العراقية الذين حملونا بالكثير من الكتب. مررنا أمام "مقهى السلام" فلمحنا مُحَمَّد برادة والطاهر بنجلون يجلسان وراء الحاجز الزجاجي. دخلنا. وضعنا أحمال الكتب قبل أن نصافحهما. جلسنا لنستريح. تندر بنا برادة، وبالأحمال التي نحملها. طلب منا الطاهر أن نختار من تلك الكتب ما يهمنا وأن نقدم الباقي لأحد باعة الكتب على الرصيف، مجانا. شربنا القهوة، ثم غادرنا المقهى نحو محطة سيارات التاكسي لنتجه نحو القنيطرة، وإلى بيت جدي وجدتي، حيث كان شكري يلقى الترحيب.

من القنيطرة، عدنا إلى فاس.

وقت للغناء

ذات ليلة دعانا الشاعر المرحوم أحمد المجاطي إلى سهرة في بيته، حضرها بعض زملائه الأساتذة في كلية الآداب – ظهر المهراز. ظهر مُحَمَّد كعادته ضحوكا، يلقي الكلمات على عواهنها، دون أن يراعي شيئا من المهابة التي كان يتصف بها

أحد الأساتذة، فتحدث دونما مناسبة، وكأنه يستعرض ثقافته، عن رواية "الغريب" لألبير كامي وثلاثية سارتر "دروب الحرية"، وعن رواية "أنا وهي" لألبيرتو مورافيا، ثم تحدث عن الإلياذة والأوديسة، ورسالة الغفران، وكأنه يرسل إلى الحاضرين رسالة مفادها أنه مطلع على هذه الأعمال، وإن لم يكن جامعيا مثلهم فهو ليس دونهم في المعرفة. لم يجد من يجادله أو يحاوره، فالوقت كان وقتا للسهر.

ذهبنا إلى المطبخ أنا وأحد الأصدقاء الحاضرين لإعداد الطعام، وبينما نحن ننهمك في ذلك، سمعنا شكري وهو يغني:

يا دنيا يا غرامي

يا دمعي يا ابتسامي

أتيت إلى الصالون لأرى ما يحدث، فوجدته واقفا فوق المائدة، يغنيبكل جوارحه. بمجرد ما رأيت ذلك المشهد، استرجعت مشهدا آخر كان قد صوره لي شكري، وهو وقوفه فوق إحدى الموائد في مقهى"عين الخباز".

أخبرني المجاطي بأن هذا لا يليق بجلسة يحضرها أناس جديون، لا يستسيغون أن تحدث فيها بعض السخافات. لم أشأ أن أطلب من شكري أن يكف عن الغناء، لأنه سوف يعتبر ذلك قمعا له ووصاية عليه، والحق أنني كنت مع تلقائيته التي يتصرف بها، فظل يغني إلى أن أتى المجاطيفأنزله برفق عن المائدة وأجلسه، فبدا مستسلما له.

عدت إلى المطبخ لتحضير الطعام، ومنه سمعت أحد الأساتذة يسأل شكري:

. أين تعلمت الغناء؟

أجابه شكري:

"كنت في سن الرابعة عشرة، أذهب إلى مقهى يوجد ب"عين الخباز"

بتطوان، وهو مقهى بالنهار، يتحول في الليل إلى حانة سرية. كان بعضالرواد يرسلونني إلى "الملاح" لكي أحضر لهم الخمور. في ذلك المقهى كنت أعتليإحدى الموائد وأغني. وفي تلك المرحلة، حفظت الكثير من أغاني فريد الأطرش ومحمد عبد الوهاب وكنت أؤديها أمام الحاضرين، وكلما انتهيت من أداء أغنية يصفقون لي ويمنحني بعضهم بعض الفرنكات".

سهرات أخرى كثيرة، حضرها شكري، وكان حريصا على أن يغني أغنيته الأثيرة:

يا دنيا يا غرامي

يا دمعي يا ابتسامي

وقت للجنون

كان شكري مجنونا بجنونه الإبداعي، ولم يكن مريضا عقليا، رغم دخوله للمصحة العقلية مرتين.

حدثني عن المرة الأولى، دون أن يذكر ما وقع له، أو الظروف التي نقل فيها إلى مستشفى الأمراض العقلية، لكنه وصف تعرضه للعلاج بالصدمة الكهربائية، بواسطة الصناجتين اللتين كانتا تُلصقان بجانبي رأسه، والصعقة التي كان يشعر بها. سألته:

ـ هل كان ذلك مؤلما؟

قال:

ـ طبعا. وهل تتصور صعقا كهربائيا للدماغ يتم بغير ألم؟

بدا ساهما، يسترجع في ذهنه التفاصيل. لم ينتظر أن أسأله عما وقع،

فأخذيحدثني بكثير من المرارة عما عاشه بعد خروجه من المصحة العقلية في تطوان وعودته إلى طنجة، فقد وجد نفسه مفلسا، وأمام حاجتهالشديدة إلى المال، اضطر إلى أن يبيع شيئا من ممتلكاته، فما وجد في الشقة شيئا ذا بال، لذلك قرر أن يبيع كتبه. أتى بصناديق فارغة، وملأها بالكتب، ثم حملها إلى رصيف على رصيف شارع مُحَمَّد الخامس، وصففها، كتابا بجوار الآخر، ثم وضع لوحة على الجدار، كتب عليها: "درهم واحد للكتاب". لم يأت من يشتري كتابا واحدا. مر على ذلك الرصيف شاعر صديق لشكري، فرآه مستندا إلى الحائط، ويده على خده. اشترى منه الكتب جميعها، بدرهم لكل كتاب، فأعادها إلى الصناديق، وحملها الشاعر، ومضى شكري متحسرا على مكتبته التي أصبحت فارغة، هو من كان يجالس الكتاب كخير جليس. مرت شهور وتوصل شكري ببعض المال، فقصد الشاعر وطلب منه أن يعيد إليه كتبه مقابل ثلاثة أضعاف ما دفعه إليه من مال، لكن الشاعر رفض، وتمسك برفضه. بقيت مكتبته فارغة، فأصبح بين حين وآخر، كلما رآها على ذلك الحال يشتم الشاعر الذي ابتزه في لحظة ضعفه وإفلاسه.

أما في المرة الثانية التي دخل فيها إلى المصحة العقلية، فقد حدثني عن تفاصيلها بعد خروجه، وكان أن أرسل إليّ رسالة يقول فيها إنه نزيل "مصحة مايوركا" بتطوان، وأنه يتلقى العلاج على يد الدكتور مُحَمَّد الجعيدي. كان الجعيدي طبيبا نفسانيا يشرف على تلك المصحة، وكان مناضلا يساريا تعرض للاعتقال، فأدركت أنه سوف يستوعب خصوصية حالة شكري، باعتباره كاتبا، وذلك ما كان. في رسالة أخرى أخبرني شكري بأنه قد بعث برسالة إلى مُحَمَّد برادة، وأن الدكتور الجعيدي يؤنسه شخصيا، ويقدم له ما يرغب في قراءته من كتب، ويحرضه على كتابة الرسائل إلى أصدقائه. أحزنتني حالة شكري، وفسرتها بما يتعرض له

الكتاب والمثقفون من ضغوط نفسية نتيجة للاحتقان السياسي وانهيار حلم التغيير. كتبت مقالا بعنوان: (اهتزاز أرواح الكتاب) ثم نشرته في الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي، وهو المقال الذي اطلع عليه شكري في المصحة فأغضبه، وعاتبني بعد خروجه منها على نشره، فقد اعتبر أن نشر خبر دخوله إلى المصحة العقلية سوف يفقده مصداقية التعامل مع الناس، وثقتهم به. أوضحت له أنني لم أقصد ذلك، وأن المقال قد تعرض من خلال حالته لحالة القلق التي نعيشها النخب الاجتماعية، والكتاب والمثقفون، بسبب غياب الديمقراطية وتحريك السلطة لآلة القمع والحصار. خفض رأسه، دون أن أدرك هل اقتنع أم أنه لم يقتنع، وقال لي:

ـ عليّ أن أمضي وقتا في كسب ثقة الناس، لأزيل تلك الصورة التي ربما يكونون قد حملوها عني بسبب دخولي إلى المصحة العقلية.

كثيرون طلبوا مني نسخة من ذلك المقال، عبر الأنترنيت أو بوسائط أخرى، لكني لم أكن أتوفر عليه.

لم تعرف علاقتنا أي توتر بسبب ذلك المقال، ولأن شكري ظل حميما، فقد باح لي بما وقع له قبل دخوله المصحة العقلية. قال إنه قد دخل "حانة الروكسي"، وبالغ في الشرب، إلى جاء شخص لا يعرفه، فأخذ يشاكسه، ولم ينجح في تهدئته حتى بعد أن دعاه لأن يشرب كأسا على حسابه، وأن يتركه لحاله، وعندما زادت استفزازات الرجل، وشتم بشتائم جارحة، أراد شكري أن يضربه بلكمة تفاداها الرجل، ليتلقى منه لكمة، ويحس بقبضة يده رخوة، لا تستطيع أن تسدد اللكمات. كاد شكري يسقط على الأرض بعد أن تلقى من الرجل عدة لكمات، وأحس بالمهانة، فخرج من الحانة وقصد حانوت البقال ليشتري موسى حلاقة، نزع عنه غلافه الورقي، ووضعه بين وسطاه وسبابته، فأقبل على الرجل

ليذبح عنقه أو يشرط وجهه على الأقل. وقال إنه عندما هاجم الرجل رأى الدم يتدفق من وريده، فأصابه الرعب، ووقف في وسط الحانة وهو يصرخ ويردد:

ـ ذبحته. أنا قاتل.

قال إنه لم يتفطن إلا لأحد أصدقائه وهو يدفعه نحو المقعد الخلفي لسيارته، ويقوسها، ليتفطن مرة أخرى على وجه الدكتور الجعيدي وهو يحقن وريده بحقنة ويدعوه إلى الاسترخاء، ثم يخبره فيما بعد، بأنه في مصحة مايوركا، وسيبقى فيها لبعض الأيام إلى أن يسترجع توازنه العصبي وراحته النفسية.

وقال إنه لم يختلط كثيرا بالمرضى العقليين، رغم بقائه في المصحة لأكثر من شهر. وكان طبيبه يؤكد له أنه لم يقتل أحدا، وأن المبالغة في الشرب هي التي صورت له ما توهمه على أنه حقيقة.

خلال ذلك الشهر، كان شكري قد تخلص من آثار الخمر على عقله وجسمه. لكنه بمجرد عودته إلى طنجة، أقبل على "حانة الروكسي" ليتأكد من أنه لم يقتل ذلك الرجل، وعندما أكد له النادل ذلك، طلب منه كأسا.

وقت للحب

كثيرا ما كنا نتحدث عن علاقتنا بالمرأة، وبالحب والزواج. كان شكري لا يخفي شيئا من تجاربه السابقة، وقد حكى لي عن تجربة حب عاشها مع معلمة كانت تعمل معه في المدرسة الابتدائية، تطورت إلى أن اتفقا على الزواج، وقد أحبها كما يحب جميع الرجال محبوباتهم. لكنه، وهو في أعلى درجات صبوته وعشقه، فوجئ بأنها على علاقة مع شخص آخر. لم يعرف لماذا تكون على تلك العلاقة، وفي نفس الآن تُظهر له الحب، وتقبل الزواج منه، ولم يجد تفسيرا لذلك سوى أنها تريده زوجا وتريد الآخر عشيقا. لم يواجهها بعلاقتها السرية مع

عشيقها، وبما شعر به من ألم الغدر والخيانة، وذهب إلى محل قريب من سكناه، يبيع الثلاجات الكبيرة التي يستعملها الجزارون، فاشترى واحدة بالتقسيط، وأتى بها إلى شقته، ثم دعا تلك المعلمة لأن تزوره، ولما حضرت أخبرها بأنه قد اكتشف خيانتها، وأطلعها على الثلاجة، ثم قال لها:

ـ هنا سوف تتجمد قطعك لحمك، وتبقى إلى الأبد.

يقول إنها قد أخذت تبكي،فتراجع عن خطة القتل، ولم يكن تراجعه بسبب إشفاق عليها، وإنما لأنه وجد أن لا امرأة تستحق أن يقضي رجل من أجلها بقية عمره في السن.

كانت أول تجربة حب عاشها شكري، وقد ظل لسنوات متأثرا بما لحقها من فشل. لم يكن يسخر من الحب والمحبين، والعشق والعاشقين، بل كان يمجدهم، ويقول:

ـ من حقهم أن يفرحوا بحبهم، لشهر أو سنة، ريثما يظهر ما في النفوس، لتحل الخصومات،والكراهية محل الحب.

مرة سألته:

ـ أنا لن أسألك لماذا لم تتزوج، ولكن أسألك لماذا لا تتزوج؟

رد علي:

ـ وأين سأجد امرأة حمقاء مثلي؟

ومرة قال له مُحَمَّد برادة:

ـ عليك أن تتزوج، لتتنظم حياتك وتجد الاستقرار.

رد عليه:

. ومن أخبرك بأنني في حاجة إلى ذلك؟ أنا أعيش حريتي، والقفص، حتى وإن وصفوه بأنه ذهبي، فهو يسلب الحرية.

ثم قال لي ساخرا:

. يريدني أن أتزوج من امرأة كالقاطرة تجر من ورائها العديد من العربات، من إخوتها وأخواتها وأخوالها وأعمامها وأبنائهم وبناتهم، فضلا عن والديها اللذين يحتلان معها أول عربة.

ضحك برادة وقال له:

. ليس بالضرورة. عندما يملأ بيتك أهل زوجتك، تشعر بالبهجة، وتستمتع بحديث يختلف عن أحاديثك مع السكارى في آخر الليل.

بدا شكري متأملا. قال له برادة:

. أنت الآن تقارب الخمسين. كفاك من الضياع، فقد ضعت بما يكفي. إن لم تتزوج في هذه السن من عمرك فسوف تُضَيِّعُ الفرصة إلى الأبد.

قال بإصرار:

. لست مستعدا لأن أغير نمط حياتي من أجل امرأة. ثم إنني لن أجد المرأة التي تقبل نمط حياتي.

قال له برادة:

. يجب أن تغير نمط حياتك، لأنك مقبل على الشيخوخة، وتحتاج إلى استقرار عائلي.

رد عليه:

. لا أستطيع.

جاء يوم وجد فيه شكري تلك الحمقاء، لا ليتزوجها، ولكن لتعيش معه ليله ونهاره لعدة شهور، وهي شابة إنجليزية تسيب اسمها. كانت في الخامسة والعشرين تقريبا، على جمال، أحبت شكري وأحبها، وعاشت معه طقوس حياته اليومية. جاءت من لندن لقضاء فترة قصيرة في طنجة، وعندما التقت بشكري طالت إقامتها لعدة شهور. وقد حضرت في بيت شكري وهو يتحدث مع والدتها بالهاتف، ويطمئنها على ابنتها، بينما هي تطلب منه أن يقنعها بالعودة إلى لندن. تعلق بها وتعلقت به، وكان يغار عليها من أصدقائه. مرة قال لي:

ـ سألتها عمن تحرشوا بها فذكرت الكثيرين، وعندما سألتها عمن لم يتحرشوا بها، ذكرت اسمك.

كما عاش شكري تجربة عاطفية أخرى مع شابة زيلاشية، تكتب الشعر، وتعيش حياة متحررة، وقد لازمته لعد شهور، وكان شكري يشتري لها الملابس، ويأخذها إلى أحسن المطاعم. بدا فرحا بها، ولفقر أسرتها فقد خصص لها راتبا شهريا مقابل مساعدته في تنظيم بعض أعماله، وخاصة منها ما يتعلق ببرنامجه الإذاعي الذي كانت تبثه إذاعة ميدي ١. في إحدى الليالي، استضاف شكري رجلا أجنبيا كان بصدد إمضاء عقد معه، نسيت طبيعته، وكنت حاضرا. أعد شكري المائدة، وقدم لضيفه كأسا، فأترعها، وطلب من الشابةالزيلاشية أن تسقيه كأسا أخرى. لبث ما طلب، من غير أن تستأذن شكري، ولما قدم لها كأسه الفارغة، ظلت تصب، وعيناها في عينيه، والشراب يتدفق على الأرض، فهب شكري من مكانه وانتزع منها القارورة، ثم جلس متوتر الأعصاب. بعد حين طلب منها أن تغادر الشقة. كان الوقت ليلا. أخبرته بأنها لا تستطيع أن تعود إلى أصيلة في ذلك الوقت. أصر على أن تغادر الشقة، ثم أعطاها مبلغا من المال، فخرجت،وأخرج الرجل الأجنبي من بيته مضحيا بالعقد الذي كان سوف يمضيه

معه في تلك الليلة.

تسللت صورة الشابةالزيلاشية، إلى الجزء الثاني من سيرة محمد شكري: "زمن الأخطاء". وليس من شأننا أن نقيم المقارنة بين ما عاشه شكري مع تلك الشابة، وبين ما كتبه عنها في سيرته، فما كان بإمكانه أن يستنسخ الواقع الذي عاشه معها، بحرفيته، وبتفاصيله اليومية. لقد سعى إلى إضفاء قيمة أدبية وأبعاد تخييلية على تلك العلاقة.

وما كان قلبه من حجر، فقد كان يخفق لعبور الجميلات أمامه، وإن لم يكن زير نساء أو متهافتا على المومسات.

وقت للرياضة

كان شكري يستغل مناسبة حضورنا في بيته، فيدعونا إلى السطيحة ليقدم لنا فرجة من خلال قفزة يقوم بها ليصبح مستندا بيديه إلى أعلى قائمتي الكرسي الخلفيتين، ورجلاه ممددتان في الفراغ. يمضي لحظات في ذلك الوضع، ثم يقف أمامنا، ينتظر أن نصفق له، وعندما لا نصفق، يدعونا إلى أن نفعل مثل ما فعل، بشيء من التحدي.

مرة، خاطر بنفسه وهو يقف على يديه، فوق حائط السطيحة المحاذي للشارع، فوضعنا أيدينا على قلوبنا خوفا من يسقط من أعلى الطابق الخامس إلى أرض الشارع. رجوناه ألا يكرر ذلك، لكنه كان يصر، وكم من مرة، رجوناه ألا يفعل، أو منعناه بالقوة، لكن التحدي كان يدفعه إلى المخاطرة.

كل أصدقائه يتذكرون الكسر الذي حدث في إبهام يده، بسبب تحد قام به مع أحد أصدقائه، بممارسة لعبة شد اليد مع اليد فوق المائدة، والدفع في اتجاه الآخر، فعانى من ذلك طويلا.

بتظاهره ذاك بمظهر القوة، وهو يمارس تلك الحركات الرياضية، كان شكري يحاول أن يقنع نفسه قبل أن يقنع أصدقاءه بقوة جسده، وكم كان يكره التجاعيد التي ظهرت على وجهه، فيسحبها بيده نحو عنقه، ويقول لنا:

ـ انظروا، أولا هذه التجاعيد لبدا وجهي كما كان في أيام الشباب.

وقت للرسائل

تبادلت عشرات الرسائل مع مُحَمَّد شكري، والرسائل التي أرسلها إلي مُحَمَّد من طنجة وأنا في فاس كانت تتحدث عن أيام إملاقه ومغامراته مع النساء، ومغامراته الليلية، وحالته الصحية، وخصوماته مع نفسه ومع الآخرين.

رسائل كان مُحَمَّد يعرف أن أي أحد غيري لن يطلع عليها، ولذلك كان يكتبها على شكل يوميات يتحدث فيها بلغة جريئة عن تفاصيل حياته، وبما يمكن أن يوصف بأنه "سوقية" في العبارات والأوصاف وتسمية بعض الأشياء التي تنتمي إلى المحرم الاجتماعي بمسمياتها.

بعث لي بصور له مع ثلاثة كلاب طلب منه صاحبها الأجنبي (أو صاحبتها) أن يجعلها تتجول على الشاطئ، لكنه كان يكتب على ظهر الصورة:

ـ أنا وكلابي.

ثم يقول في الرسالة إن الكلاب أفضل من صاحبها.

كنت أتوفر على العشرات من الرسائل التي أرسلها مُحَمَّد إلي، لكنها ضاعت مني في الحوادث التي عشتها. أتذكر أنه كان يرسل إليّ رسالة أو رسالتين كل شهر. وفي تلك الرسائل كان يحكي لي ظروف عيشه ومغامراته الجنسية وأحواله المزاجية بصراحته المعهودة. هاتان اثنتان من تلك الرسائل.

محمد شكري
ص ب 179
طنجة

31 . 12 . 996.

العزيز عز الدين

استلمت رسالتك منذ أكثر من أسبوعين. لم أجبك في الوقت المناسب لأني كنت أمر بظروف سيئة صحياً، بسبب الإدمان على الخمر. وهذه علتي كما تعرفها أنت جيداً منذ أكثر من عشرين عاماً من تعارفنا. هل تصدق أنه في الشهور الأخيرة لم أكد أستطيع حتى الكتابة - خاصة في الصباح - بسبب رعشة اليد والدوار والغازات إلى حد الاختناق، واضطراب نبضات القلب. تمر علي أحيانا أيام لا أكاد آكل فيها إلا ما يبقيني حياً في حال مزرية صحياً وذهنياً. أول كأس خمر شربتها يوم عيد الأضحى عام 947. صحبة صديق، وكذلك أول سيجارة وأول لقاء جنسي - صبياني طبعاً - مع عاهرة كهلة في ماخور تطوان (السانية) إنه عمرك بكامله من الشراب والتدخين والنكاح والاستمناء، فكيف تريد لصحتي أن تكون جيدة أو معتدلة على الأقل! هذا الاعتراف البسيط ليس مبرراً لخطإي معك أو مع غيرك إنما هو واقعي السيئ.

٤

هل تصدق أنه بسبب السكر أهملت الإجابة عن
رسالة أرسلها لي ماسبيرو كان سيترجم بسببها
كتابي من الفرنسية إلى الإنجليزية لينشر في أمريكا
حيث كنت سأربح منه جيداً بخلاف الترجمة التي
قام بها بول بولز والتي نشرها ناشر إنجليزي
Peter Owen حيث لم يعطني سوى ألف درهم؟
كذلك أهملت إجابة ناشرة إيطالية، ومنذ أكثر
من شهر استلمت رسالة من الناشر الألماني الذي
نشر لي ثلاثة في مجلد واحد (الترجمة تمت من
العربية إلى الألمانية) يطلب مني أن أرسل له
رقم حسابي البنكي ليبعث لي بحقوق كتابي
فلم أستطع إجابته إلا أمس. وكذلك تأخرت
في إجابة دار نشر بالعربية في لندن تطلب مني
نشر كتابي الخبز الحافي بالعربية في لندن مع
تسبيق قدره 5000 درهم.
ما أحكيه لك ليس إلا جزءاً صغيراً من إهمالي.
آه، لقد نسيت أن أقول لك بأني في هذه السنة
تخليت عن ثلاثة أسفار مجاناً: بغداد، غرونوبل
وألمانيا مع دعوة من صديق إلى سويسرا. كل
هذا بسبب الخمر وسوء صحتي.

3

أما عن زيارتي إلى فاس فلم تكن ظروفي أفضل مما
ذكرته لك. منذ وصلت وأنا غارق في السكر والنوم
عند عز العرب. لم أرد أن أزعجك بظروفي الصحية
السيئة معنوياً وجسدياً. الجلوس معك يحتاج
إلى تركيز وطاقة وأنا كنت خالياً منهما. ثم إنه
قيل هناك في فاس بأنك لم تعد تحب الاختلاط
بالناس كثيراً وأنا كنت مرتبطاً بثلة من الأصدقاء:
عز العرب، أخيه السي محمد، د. محمد السرغيني،
عادل، المعطي بنقاسم وآخرين من بعض
الطلبة في الكلية.

المعذرة، وفي المرة القادمة سأخصص لك وقتك
الخاص.

عام سعيد لك ولزوجتك المحترمة فاطمة.

إذا كنت قد كتبت لك بهذا الشكل ولم يعجبك
فمعذرة ثانية.

المخلص
محمد شكري

1988.9.15

محمد شكري

ص.ب 179

طنجة

العزيز عز الدين

تحياتي الأخوية

كنا نتوقع مجيئك إلى ندوة جمعية الإمام الأصيلي. لا ندري ما منعك. الندوة كانت جدّ ناجحة. برادة وليلى سألاني عنك، وكانا يتمنيان أن تكون معنا خاصة في طنجة حيث قضّينا يومين فيهما ما طاب ولذّ.

شيكك لشهر يونيو أرجع إليّ. اذا كان في امكانك الرجاء أن ترسل لي المبلغ 500Dh الى عنواني البريدي.

ملاحظة: أصبح عندي الهاتف. رقمي من أسهل الأرقام: 42-444

سلامي إلى العزيزة زوجتك فاطمة وأنت دم بخير.

إلى اللقاء في طنجة أو في مرتيل؟

محمد شكري

وقت لإهداء الكتب

أما إهداؤه للكتب فقد كان مشكلة كبرى في حياته.

ذات صباح وأنا في بيته أتته مكالمة هاتفية من سيدة إسبانية فأخذ يتكلممعهاوهويبتسم، والانشراح باد على محياه.بعد حين وصل خادم تلك السيدة إلى البيت وهو يحمل النسخة الإسبانية من "الخبز الحافي" بغرض أن يوقعها شكري. لكنه اعتذر للخادم بأنه لم يشرب كأسه الأولى بعد، وأن أصابعه ترتجف، وهو لا يستطيع أن يكتب بحروف واضحة، كما أنه لا يستحضر في ذهنه عبارات للإهداء، تكون في مقام السيدة الإسبانية.

لاحظ ارتباك الخادم، الذي ربما لم يفهم شيئا مما قاله له شكري، فطلب منه أن يعود بعد ساعة. وألح عليه:

ـ بعد ساعة لا أكثر، فأنا سوف أخرج مع السي عز الدين.

شرب كأسه الأولى، وحمل الكتاب بين يديه ثم فتحه على صفحته الأولى. بدا مرتبكا وأخذ يتمتم:

ـ ماذا سوف أكتب لها؟

بعصبية رمى بالكتاب وقال لي:

ـ ما زال رأسي تموء داخله القطط.

صب في الكأس من القارورة ثم أضاف الماء. شرب منه. لم يسألني إن كنت أريد أن أشاركه في الشراب، لأنه يعرف أنني لا أشرب في الصباح. خرج إلى السطيحة وكأنه بنظراته يبحث عن شيء ضائع. كان ذلك الشيء الضائع هو الكلمات المناسبة التي عليه أن يكتبها كإهداء لتلك السيدة الاسبانية. عندما عاد من السطيحة أردت أن أقول له شيئا فقاطعني:

ـ لحظة. لحظة من فضلك.

أخذ يبحث عن شيء على المائدة. عندما لم يجده قال:

ـ القلم! أين القلم؟

أعطيته القلم. نظر إلى أصابعه. شرب من الكأس. قال:

ـ أيتها الأصابع، توقفي عن الرعاش، حتى أكتب بخط مقروء، وإن بقي الرعاش فسوف أكتب حروفا تشبه خراء القطط.

رآني أضحك. ضحك. سألني:

ـ هل أضحكك خراء القطط؟

قلت له:

ـ ما أضحكني هو تشبيه الخط السيء بخراء القطط.

ضحكنا. عكف على النسخة الاسبانية من "الخبز الحافي" وأخذ يكتب الإهداء بحروف لاتينية رائعة. بدا كأنه يرسم تلك الحروف. عندما انتهى من كتابة الإهداء قال لي:

ـ الترجمة الإسبانية أنجزها عبد الله اجبيلو، وهي لم ترق الكثيرين. هناك أناس أثق بمعرفتهم باللغة الاسبانية وبحسهم الأدبي أكدوا لي أن الترجمة سيئة.

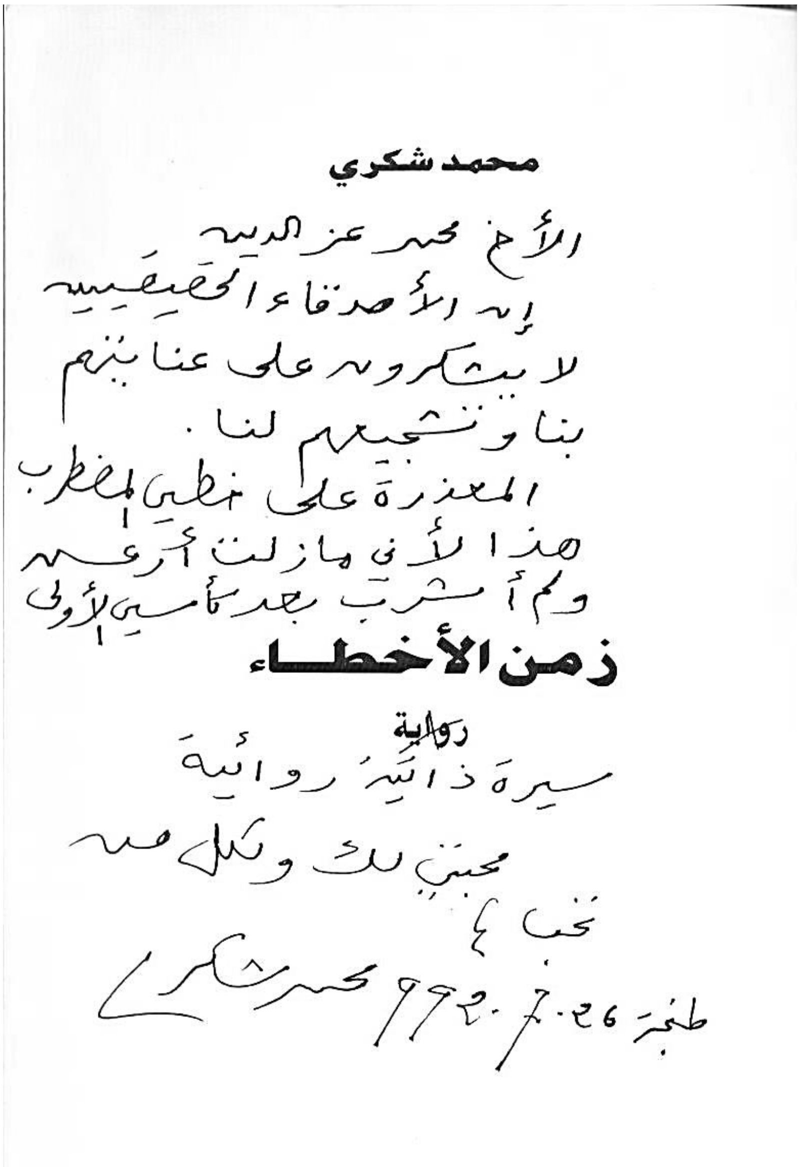
قلت له:

ـ كل ترجمة هي خيانة للنص الأصلي.

أما ما كان يكتبه لي من إهداءات على كتبه، فهو زاخر بالمعاني، فضلا عن خط شكري المتميز وتوقيعه وطريقته في كتابة تاريخ الإهداء، حيث كان يكتب:

يكتب عبارات أقرب إلى الشعر أو المناجاة، ويوقع، ثم يضع في أسفل التوقيع: طنجة، وتاريخ اليوم والشهر والسنة.

في إهداء "زمن الأخطاء" كتب لي:



وقت لجوبا

كانت له حديقة للحيوانات المنزلية، أول من استوطنها هو "جوبا".

"جوبا" ليس هو الملك الأمازيغي الذي حكم المغرب على عهد الرومان، بل هو كلب شكري، وشكري هو من سماه بهذا الاسم، تكريما له. لكن جوبا لم يكن سوى كلب من تلك الكلاب اللقيطة التي تجول في شاطئ طنجة. حكى لي أنه قد جاء ذات يوم إلى ذلك الشاطئ وأخذ يذرعه، فرأى كلبا استدرجه إلى أن اقترب منه، وبسرعة أخرج حزام سرواله الجلدي ثم أحاطه بعنق الكلب وجره جرا إلى أن وصل به إلى سطيحة بيته، وهناك أكرم وفادته بأن قدم له ديكا بلديا كاملا كان قد زهد في تناوله، وحتى لا يبيت في العراء، فقد صنع له عند النجار بيتا يليق به، فأخذ يستأنس بشكري، كما أخذ شكري يستأنس به.

اشتهر جوبا بشهرة صاحبه، فقد كان بيت شكري مزارا للعديد من الأدباء العرب والأجانب، وكانوا كلهم يتعرفون على "جوبا".

أذكر مرة أننا أنا وشكري تواعدنا مع الأديب إدمون عمران المليح في إحدى المقاهي، وكنت موجودا في بيت شكري ساعة خروجنا للقاء عمران في المقهى، ففك شكري عقال "جوبا" ووضع الحزام الجلدي في عنقه فسألته:

ـ ماذا تفعل؟

قال لي:

ـ سوف آخذ جوبا معي.

قلت له:

ـ هذا كلب البادية، وليس كلبا من إحدى فصائل الكلاب الأخرى.

قال:

ـ وما المشكلة؟

قلت:

ـ من المفارقة أن تجول به في البوليبار، كما يجول النصارى وبعض الأوانس المغربيات بالكلاب الصغيرة.

قال لي:

ـ هذه نظرة بورجوازية تعطي الحق لكلاب الأثرياء في أن تجول في البوليبار وتمنع غيرها من ذلك.

مع إصراره خرجنا وكان "جوبا" لا ينقاد إليه، بل يعاكسه في المشي، وشكري يبدو وكأنه يجر ثورا حرونا لا كلبا من المفترض فيه أن يكون طيعا في المشي مع صاحبه.

مرت أعوام، وأخذ شكري كلما زرته يشكوني من "جوبا"، فقد كانت رائحة بوله تنتشر في السطيحة، وخاصة في أيام الصيف الحارقة، ورغم الجهد الذي تبذله فتحية، ووسائل التعقيم وإزالة الروائح، فقد سكنت رائحة بول "جوبا" في السطيحة، ورغم أنها كانت بمثابة حديقة بما فيها من نباتات خضراء، فما عاد أحد يقف عليها بسبب رائحة بول "جوبا" التي سكنت في المكان. قال لي:

ـ غدا سوف أتخلص منه.

في الغد قيد عنقه وأخذه بالسلسلة، فنزلنا من بيته نحو الشاطئ، إلى أن صرنا على حافة من سكة القطار، فأطلق سراحه، وأخذ السلسلة في يده، ثم قال لي:

ـ ماذا سوف أفعل بها؟ إنها لن تصلح لي مرة أخرى، لأنني لن أربي كلبا آخر بعد اليوم.

ثم طرحها على الأرض. مشينا خطوات ثم قفزنا على سور كان يفصل بين سكة القطار وبين الشاطئ. قال لي:

ـ لن يستطيع جوبا أن يقفز مثلنا على هذا السور.

لم أرد عليه بشيء. دخلنا إحدى الحانات. هناك التقينا بكثير من الأدباء والفنانين فتبادلنا معهم التحية، ثم اخترنا مكانا خاصا لجلوسنا. تحدثنا وشربنا ثم أكلنا ودفعنا الحساب مناصفة. خرجنا من الحانة وأخذنا طريقنا مشيا إلى بيت شكري. رأيته يتطلع إلى الطريق. سألته:

ـ ما بك؟

قال:

ـ وسواس جوبا. أتخيل أن جوبا يلاحقني.

قلت له:

ـ تتخيل.

مضينا إلى العمارة التي يسكنها. صعدنا إلى الطابق الخامس. عند باب شقة شكري كانت المفاجأة: جوبا يربض عند الباب.

غبت عن شكري شهورا ثم عندما زرته وجدت "جوبا" في مكانه، والرائحة هي نفسها. قال لي إن أحد أصدقائه في إذاعة (ميدي ١) قد أخبره بأن "جوبا" لن يفترق معه إلا إذا ما فعل شيئا، وهو أن يقطع معه البحر ويتركه في الضفة الأخرى للمتوسط. عرفت أن ذلك الرجل يتندر بقصة "جوبا" مع شكري ويحولها

إلى سخرية. ناسيا أنها قد تحولت إلى سخرية، عندما تخلصنا أنا وشكري من "جوبا" ثم وجدناه ينتظرنا عند الباب.

حكايات كثيرة يمكن أن ترتبط بشكري وبكلبه "جوبا". لكن ما أساء إليّ قبل أن يسيء إلى محمد، هو أن أحد أساتذة التربية وعلم النفس، وهو صديق لي وليس صديقا بشكري وإنما يلاحظه من بعيد، قد أخذ يحلل شخصيته انطلاقا من علاقته مع كلبه، وأن الأمر يتعلق بتعويض عن حرمان أسري، فأصغيت إليه إلى أن أتم آخر كلامه، فسألته:

. هل شكري في رأيك شخصية معقدة؟

أجاب:

. بالتأكيد.

سألته:

. وكيف تبرهن على ذلك؟

أجاب:

. بكونه يعوض عن الزوجة والأبناء بأن يعيش مع كلب.

قلت:

. هو لا يعيش مع كلب، وإنما يعيش مع كتاباته التي تحفل بالشخصيات، كما يعيش مع أدباء وكتاب وإعلاميين يزورونه في كل وقت وحين.

قال:

. مع ذلك فهو يأتي إلى بيته في آخر ليعيش مع كلب يعوض به عن الحياة الأسرية. إنه شخصية معقدة.

سألته:

. وأنت، ألست شخصية معقدة؟

قال:

. لا أبدا. أنا منسجم مع نفسي، لي زوجة وأبناء، وأعيش حياة عادية.

قلت له:

. وما أعرفه عن علاقتك بالعاهرات، هل هو جزء من انسجامك مع زوجتك؟

ضحك وقال لي:

. لاشك أنك تتجسس علي. تلك أوقات أقضيها في أحضان بعض النساء، من أجل تجديد العلاقة مع حضن زوجتي.

سألته:

. ولماذا تتجسس على حياة شكري وتفسر علاقته بكلبه بالتعويض؟

قال لي:

. مرة التقيته في حانة وأردت أن أتحدث معه فصرفني عنه.

قلت له:

. وهل لهذا سمعت عن علاقته بكلبه "جوبا" فأخذت منها مادة لتحليل نفسي سطحي ومبتذل، يقوم على مفهوم التعويض الفرويدي، وهل بهذه الطريقة أنت تنتقم من شكري، الذي لم يجد الوقت ليتحدث معك؟

لست على علم بالطريقة التي انتهى بها "جوبا"، هل مات بعد أن بلغ وقت الاحتضار في سطيحة بيت شكري أم أنه قد غادرها قبل ذلك، ومتى، فهل مات

جوبا قبل أن يدرك شكري المرض ويموت متأثرا بمرضه؟وكيف مات؟ وهل تنفذ ما كان شكري يحدثني عنه في بداية السبعينات عن وجود مقبرة للكلاب في طنجة، وأنها مقبرة لا تميز بين كلاب الأغنياء وكلاب الفقراء، بل إنها مقبرة تثوي فيها جثث كل الكلاب النافقة في طنجة، ولأي كانت، أغنياء أو فقراء!

وقت لموزار

في بداية السبعينات، وهو المعلم القديم، كان يطرب أحيانا فيرسم بيديه حركة المايسترو، ويبدأ في ترديد ذلك النشيد الذي كان يعلمه للأطفال:

قد كان عندي بلبل

في قفص من ذهب

أما في التسعينات، وعندما دخل عليه شيء من المال، فقد اشترى كناري أسماه "موزار"، فأخذ يقف أمامه بوقت طويل وهو يصفر ببعض الألحان ويقوم بحركات يحسب أن الطائر يفهمها.

ثم أضاف إلى "موزار" سنجابين أخذ يمضي بعض الوقت في مراقبة حركاتهما وهما يصعدان أدراجا خشبية داخل القفص، ومع وجود "جوبا" و"موزار" والسنجابين اكتملت حديقة حيواناته المنزلية.

وقت للأصدقاء

كانت لشكري أوقاته التي يقضيها مع الأصدقاء، وكان يمتدح بعضهم في غيابهم كما هو شأنه مع الراحلين مُحَّد زفزاف ومُحَّد الكغاط ومُحَّد تيمد، ولكل واحد من هؤلاء الثلاثة قصة أو قصص معه، تداخلت فيها الصداقة بالمعيش وبلحظات الموت التي عانوها وكيف تلقاها مُحَّد بأسى كبير. تلقى موتهم تباعا،

وكلما التقينا كان يبدو عليه الأسى ثم يأتي على سيرتهم وصداقتهم معه.في حياة أصدقاءنا الثلاثة، كان شكري، وإن تعذر اللقاء، يتلقى منهم مكالمات هاتفية، يسألونه خلالها عن أحواله، ثم يتبادل معهم شيئا من المزاح، فأراه يضحك ملء فمه، ثم يخبرهم بوجودي معه، ويسلمني السماعة لكي أتحدث معهم.

التقيت بالصديق الممثل والمخرج المسرحي مُحَمَّد تيمد في بيت شكري عدة مرات، بعد أن أصبح يقيم في طنجة، وافتقدته في فاس، حيث أذكر أنه كان قد أسس مسرح الطليعة مع أحمد زكي العلوي، وقدما عدة عرويض في مسرح "باب المكينة"، من بينها مسرحية "موت اسمه التمرد" ومسرحيات أخرى.

لكن شكري كان يخالط أناسا كثيرين، ملأوا عليه حياته ووقته، حتى أصبح الوقت عنده تزجية وملئا للفراغ. كما كان يعتبر أن الأماكن التي يذهب عليها تفرض عليه أن يلتقي بهم، وكنتُ أذكره بحاجة الكاتب إلى الخلوة التي تساعد على التأمل، فكان يقول لي:

ـ تلك الخلوة غير مطلوبة بالنسبة لواحد مثلي، يحب الحياة، والعيش في الصخب.

وكنت أعرف أنه قد دخل متاهة ولم يستطع الخروج منها، فأصبح يلتقي مع أناس يعتبرهم معارف، لا أصدقاء، كما يقول، فقد كان يميز بين الأصفياء من أصدقائه وبين المعارف الكثر، الذين يحيطون به ويفرضون أنفسهم عليه.

كان شكري في السهرات التي حضرتها في بيته في بيوت بعض الأصدقاء طنجة يحظى بكثير من النجومية وهو يملأ الوقت كله بحكايات متسلسلة يحكي الواحدة منها بعد الأخرى وهو يضحك ونحن نضحك ثم يأتي بالتي بعدها ونحن لم نجفف دموع ضحكنا بعد.

كان مُحَمَّد يصنف بعض أصدقائنا من الأدباء إلى نوعيات من حيث السلوك والمزاج والأخلاق، فإذا ما ذكرت اسما لأحدهم كان يسميه: السقرام (البخيل)، ويسمى آخر: "العدواني الكبير"، وآخر: "الشاعر الفاشل"، وآخر: "الضفدع المسموم"، وآخر: "المفلس"، أما صديقه الشاعر عبد اللطيف الفؤادي فكان لطول قامته يسميه: "نخلة الله".

كنا نتحاور في شؤون الكتابة وحاجة الكاتب إلى الخلوة والتأمل وبناء العوالم والشخصيات والتفاصيل، فكان يشكو من العادة التي تعودها وهي الخروج من بيته في النهار والليل، ليجد نفسه محاطا بزمرة من أدعياء الثقافة والأدب، لكنه كان لا يرضى أن يبدو ضعيفا من هذه الناحية، فيقول إنني قد توقفت عن الكتابة لمدة طويلة ثم عدت إليها برؤية جديدة، والإنسان إذا كان كاتبا فهو يمتلئ بما في الحياة والآخرين تجارب وأفكار وذكريات، وإلافمن أين نأتي بمواد الكتابة إن لم نوسع علاقاتنا مع الآخرين؟ وهي متاهة أحسست أن شكري يدخلها، مع الليليين والنهاريين، فمتى يكتب، ومتى يقرأ، ومتى يتأمل؟ إنه يحوم حول نفس الأماكن ويسير يوميا في نفس الطريق، من بيته إلى البريد المركزي إلى (الروبيس) وقبله إلى مقهى البريد، ثم إلى "الريتز" حيث استقر به المقام. يسير في خطوات معلومة هي نفسها خطوات كل يوم، وكنت أستغرب كيف ضاقت طنجة بشكري، هو الذي غادر منذ سنوات بعيدة مراتعه في السوق الداخل لا عن تعال عن معارفه هناك وإنما لضيق استشعره من ذلك الفضاء، ربما يعود لكونه قد استهلكه، لكنه كان قد استهلك نفس الأماكن الأخرى، فلم يعد ثمة من ابتهاج غير بالسفر، وهو الذي لم يسافر ولم يحب السفر، ذهب إلى فرنسا أو مرة كضيف على البرنامج التلفزيوني الشهير (أبوسطروف)، ثم سافر إلى ألمانيا وإسبانيا وهولندا، وبعد ذلك وقبله أكثر من سفره إلى الدار البيضاء والرباط

وفاس، وفي كل تلك الأسفار لم يكن يقدر على مفارقة طنجة، وكأنها أسيرها وعاشقها والمتمرد عليها.

كان مجنون الورد صديقا لكتاب وشعراء عرب تبادل معهم الرسائل ورافقهم خلال زياراتهم لطنجة أو لبعض المدن المغربية الأخرى فأخذ صورا معهم، ومنهم عبد الوهاب البياتي وحميد سعيد وعلي جعفر العلاق الذي كان شكري قد كتب دراسة عن ديوانه " وطن لطيور الماء"، مع صداقته لمحمد برادة ومُحَمَّد الأشعري وإدمون عمران المليح وآخرين، وكان بيته محجا للكتاب القادمين من الشرق أو من أوربا، يستقبلهم بحفاوة فيستأنسون به ويحبون في شخصه ثقافته الواسعة وآراءه في الكتابة والكُتاب وتلميحاته الذكية ومرحه وخبرته بالحياة. وأما خصوماته مع الطاهر بنجلون أو مع بول بولز فكانت لها خفايا وخبايا، ولم تكن مجرد عدوانية من شكري أو جحود لمن ترجما (خبزه الحافي) إلى الفرنسية والإنجليزية، فهو أدرى بهذه الأمور، وكتابه عن بول بولز يوضح كثيرا منها من وجهة نظره حتى وإن لم تعجب تلك التوضيحات بعض من يعتبرون أنفسهم ورثة ثقافيين لبول. أفهم تلك الخصومات على أنها معارك تقع على هامش الثقافي، وإن كانت تستند إليه، وإن علمنا أن معظم الكتاب العرب القدامى والمحدثين ومعظم الأدباء الغربيين قد خاضوا من المعارك ما يشبهها فسنعد ذلك لصالح مُحَمَّد لا ضده، ودون الدخول في التفاصيل.

لم يكن أصحابه جميعهم من الكتاب والمثقفين الطنجاويين، بل كانوا أيضا من معارف مُحَمَّد في السوق الداخل وفي غيره من الأماكن التي كنا نرتادها، وبالرغم من أن أولئك الناس كانت لهم تجاربهم الخاصة التي يحكونها بتلقائية، وأمزجتهم وطباعهم وردود أفعالهم، فما تخاصمنا مع أحد، وما رأيت مُحَمَّدا يتخاصم، وإنما كان أغلبهم يدفعون عنا بسخاء إكراما لمحمد الذي كان كاتبا مثلنا ولم يكن قد

وصل إلى العالمية بعد بترجمة أعماله إلى عدة لغات. وهو نفسه كان يعرف متى يصرف أحدا أو يقترح عليَّ أن ننسحب إن بدا ما يزعج في الجلسة، أو يكرم أحدا ليرد إليه الجميل.

أعتبر نفسي مدينا لشكري بصداقات عقدتها مع أناس شعبيين ما زلت أستمتع بخلوصها وصفائها إلى اليوم، وما زلت أرى في عيون أولئك وكلماتهم ذكريات مشتركة عشناها جميعا، في ربوع طنجة.

وقت للسطيحة

في سطيحة شقته كنا نجلس، وهي التي كان يسميها (الطِّرَّاسَة) كما هو اسمها بالإسبانية.

كنا نجلس في سطيحة شقته التي توجد في الطابق الخامس، نفطر في بعض الأيام بخبز مشوي وجبن وكوب من البرتقال نسكبه من قارورة يبدو أنه قد تختر فيها لكثير من الأيام، وفي أيام أخرى نكتفي بقهوة، لكن شكري كان يحتفظ في علبة معدنية بما يسميه بيض ملكة النحل، يتناول منه، ويقول لي:

ـ إنه ينظف الكبد، ويُخرج منها السموم.

يلح عليَّ في أن أذوق منه. نخرج إلى السوق فنشتري خضرا وسمكة كبيرة من نوع "الشرغو" أو ديكا بلديا كان شكري يسميه "كوكوعو". قليلا ما كانت فتحية تعد لنا الطعام، تكتفي بإعداد السلاطات وتترك لمحمد أن يطبخ السمكة أو الديك بطريقته. خلال فترة الطبخ نجلس لنحتسي بعض الكؤوس وندخن ونتحدث في قضايا الأدب والكتابة، وكان مُحَمَّد يدقق معي في مسألة الكثافة اللغوية، أو ما يمكن أن يسمى بالأسلوب البرقي، فلما عرضت أمامه ما كان قد كتبه الناقد الأمريكي (كارلوس بايكر) عن أسلوب (همنغواي) الذي يعتمد على

الاقتصاد اللغوي، وجدته وقد قرأ الكتاب. وكتاب (بايكر) كنت قد استعرته من المكتبة المصرية بالبطحاء بفاس فجاء من استعاره مني وسطا عليه فلم أتمكن من رده للمكتبة. وخلال تلك الجلسات وجدت في مُحَّد شكري قارئا حصيف الذاكرة، فقد قرأ ثلاثية سارتر دروب الحرية، إضافة إلى متن روائي كبير مترجم، فكنا نقرأ لبعضنا نصوصنا الجديدة.

كان مُحَّد، وقبل أن يفسد مزاجه ويستبد به المرض ضحوكا، حيويا، سريع البديهة، ميالا إلى المزاح، وكان له تنكيت بطريقته الخاصة، يخلق به نوعا من المرح للحظة، دون افتعال أو تصنع، بل كان كل من يصغي إلى تنكيته يشاركه ويضحك من القلب. أيامها، كنا نضحك من القلب، أما اليوم فقد جاء الزمان بمن أفسدوا الأمزجة فما عاد الضحك أمرا تلقائيا أو حتى مصطنعا عند من لا يحبون التصنع.

كانت له عبارات يكثر من ترديدها وهو يضحك، من قبيل تنذره بجريدة العلم أيام كنا ننشر فيها قصصنا ومقالاتنا، فكان يقول: "يا سلام على الكلام المكتوب في جريدة العلم". وإن أتته أموال من ترجمات كتبه فقد كان يسمي تلك الأموال"الأرزاق الإلهية". وقد أكثر من القول لأصدقائه في أوقات كان يريد صرفهم عن موضوع ما: "ادخل سوق راسك"، سيما إذا ما نصحه أحد بالزواج أو دعاه للسفر كي يخرج من دوامة الحياة اليومية التي تملكته فلم يعد يستطيع الخروج منها. وكان أيضا يُحَدِّثُ حيواناته المنزلية بأحاديث غريبة وكأنها تفهم لغته، وربما كان كلبه "جوبا" أقربها إلى فهم لغته، وبعده يأتي "الكناري" الذي سماه موزار لأنه كان يغرد تغريدات طويلة، أما السنجاب فما أعتقد أنه يفهم لغة شكري.

من عرف شكري في السبعينات والثمانينات يكون قد وجده ضحوكا، حاضر البديهة، كثير الميل إلى أن يصنع نجوميته في جلسات الأدباء وسهراتهم،

وكان يصنع تلك النجومية من مرحه وخفة روحه وقدرته على الحكي وذكر أشياء غريبة لا تخطر على البال. وهذا جانب من شخصيته، أحبه فيه أصدقاؤه من الأدباء، فإن أتوا إلى طنجة فلا من سهرة في بيت شكري، وإن أتي شكري إلى فاس أو الرباط أو الدار البيضاء فلابد من سهرة يحضرها. مبعث كل ذلك، هو محبة الأدباء لبعضهم، وقدرتهم على تبادل الاحترام، والاعتراف بالآخر.

كان شكري محبوبا الجميع، ورغم سلاطة لسانه في بعض الأحيان، لم يكن له أعداء، ما عدا واحد أو اثنين، أما أحباؤه فكانوا كثرا، منهم أنا ومُحَّد زفزاف ومُحَّد برادة واللائحة طويلة.

كان قضاء يوم وليلة في طنجة، مع شكري، يعني بالنسبة لي نوعا استراحة المحارب، أعيش فيه الكثير من المبهجات، ولم يكن شكري ينغص اللحظات، كغيره من بعض الشعراء والكتاب، بل كان يُبهجني ويجعلنا نعيش الحياة بكل ما تستحقه من فرح ومرح، حتى إننا نصبح طفلين في غاية البراءة. أحيانا نشترك في طبخ الطعام ونستمع إلى الموسيقى ونشرب ونثرثر ونضحك بملء القلب. لذلك كنت بين شهر وآخر آتي إلى طنجة، وأقصد بيت شكري، في حدود العاشرة صباحا. أصعد إلى الطابق الخامس حيث شقته. أقرع جرس الباب. يستقبلني بمحبة، ونبدأ نهارا سعيدا، نبوح خلاله لبعضنا، وكان شكري يُبْعِدُ عنا من يحومون حولنا من أصدقائه ومعارفه، ويعلل ذلك بأن شغلا بيننا وينبغي أن نتحدث فيها على انفراد، تاركا لفضول أولئك أن يتطلعوا إلى ما هو ذلك الشغل.

وقت ل"كوكوعو" (الديك البلدي)

رأينا في مجلة "دفاتر الشمال"، التي كنت عضوا في هيئة تحريرها، أن نجري حوارا مع مُحَّد شكري حول تجربته في الحياة وفي الكتابة، وكلفتُبإجراء الحوار.

اتصلت به بالهاتف فحصلت على موافقته، ولما أخبرته بأنني سوف أحضر لتلك الغاية، اشترط عليَّ أن أحضر ديكا بلديا (يسميه كوكوعو) وفواكه، وأن يكون له تعويض مالي قدره ألف درهم. عرضت الشرط على مدير المجلةفوافق. ذهبنا إلى طنجة أنا وهو، وكان أول ما فعلناه هو أن اشترينا ديكا بلديا ولحوما وفواكه، ثم قصدنا بيت شكري. فتح الباب بنفسه، مبتسما، تفوح منه رائحة عطر نفيس، فرحب بنا. سلمت المشترياتلفتحية، ثم أخذنا إلى السطيحة. أخبرنا بأنه قد استيقظ في الصباح الباكر واستحم وحلق ذقنه، استعدادا للقائنا. عرضتُ عليه الأسئلة التي كنت قد أعددتها فرحب بها وقال لي:

ـ اسأل كما تريد.

جاء صديقه مصطفى ليخدمنا. فرش المائدة بالسلاطاتوالأجبان.قال لي مُحَمَّد:

ـ أرسلته إلى السوق قبل مجيئكما فأتي بكل ما نحتاج إليه.

سألته:

ـ لكنك طلبت الديك البلدي.

قال:

ـ كنت أمزح معك، وها قد فعلتماها بالجد.لدينا سمكة كبيرة في الفرن، أعدتها فتحية. هل نضيف إليها كوكوعو؟

قلنا له:

ـ السمكة تكفي.

بدأ عبد الوهاب بإعداد آلة التسجيل ثم سجل مقدمة للحوار، تحدث فيها عن المكانة الخاصة لأدب مُحَمَّد شكري في الأدب المغربي والعربي، وبعدها أخذت

ألقي عليه الأسئلة وهو يجيب عنها بعفوية وتلقائية.

قبل خروجنا من بيته أخرج مدير المجلة من جيب سترته ظرفا وقدمه لمحمد، فهمت أنه يحتوي على الألف درهم، غير أن شكري رفض أن يأخذ الظرف، والتفت نحوي قائلا:

ـ هل تصدق كل ما أقول؟ حتى عندما أمزح معك فأنت تأخذ كلامي على محمل الجد.

أبدى إصراره على ألا يأخذ الظرف، وقال لمدير المجلة:

ـ أنا استمتعت بالجلسة معكما، وبالحوار الذي أداره صديقي، لأنه طرح عليَّ أسئلة جوهرية، وأخرجني من ذلك الكلام المعاد والمكرور، الذي طالما كررته وأعدته في كثير من الحوارات التي أجريت معي.

كثيرة هي القنوات التلفزيونية التي أجرت حوارات مع مُحَمَّد شكري وهو يجول في أبهاء ومراتع مدينته طنجة. قنوات إسبانية وفرنسية وألمانية، دون أن نغفل استضافته الشهيرة من قبل برنامج "أبسطروف" الذي تبثه قناة **TV5** الفرنسية.

كنت برفقة مجنون الورد في طنجة، فأخبرني بأنه على موعد مع فريق من التلفزيون الألماني لتصوير حوار معه، وكان الموعد في الساعة الحادية عشرة ب"حانة النيكريسكو". ذهبت معه، والحانة كانت تحتفل بصوره على الجدران، وخاصة تلك الصورة التي يظهر فيها وهو حليق شعر الرأس. دام الحوار خمس دقائق، وقد أخذ شكري عليه مكافأة قدرها خمسة آلاف درهم. كان بعض روادالحانة يتطلعون إلى مكان التصوير. عندما ذهب الألمان جاء مُحَمَّد للجلوس معي. قال لي وهو يُخرج الأوراق المالية من جيبه:

ـ انظر! هذه خمسة آلاف درهم. ثلاثة آلاف سوف أحتفظ بها لنفسي،

وألفان سوف أتبرع بهما على رواد الحانة.

نادي النادل وقدم له الألفي درهم، وقال له:

. اسق هؤلاء العطاش إلى أن تنفد الألفا درهم، وساعته على كل واحد أن يدفع ثمن ما سيشرب.

أعلن النادل ذلك. صفق بعض الحاضرين. نهض شكري من مكانه وحيى الجميع وهو يبتسم. بعد حين قال لي:

. أنا وأنت سوف نغادر لنذهب إلى مكان آخر.

سألته:

. ولماذا؟

قال:

. حتى لا نبقى تحت الأعين. كل الناس هنا ينظرون إلينا. لنتركهم يشربون على راحتهم.

ذاك هو مجنون الورد، غريب الأحوال والأطوار، لكنه طيب صادق مع الناس ومع نفسه، وهو كطير شريد يضيق بالمكان فلا يطيل المقام فيه، ولذلك ظل ينتقل من طنجة إلى طنجة، ومن طنجة إلى المدن التي زارها، ومع ذلك فقد عاش وهو يحمل قلقه بالمكان، ذلك القلق الوجودي الذي عاشه على طريقته الخاصة.

وقت للكاتب العالمي

كان مُحَمَّد شكري يفخر بلقب (الكاتب العالمي) ليصفني أنا وغيري من الكتاب المغاربة ب (الكتاب المحليين) بين مزاح وجد، فلا يترك الفرصة لفهم هل

هو جاد استصغاره للأدباء المغاربة الآخرين أم أنه يهزل. حتى لو كان جادا فلماذا يستعرض كتبه المترجمة إلى اللغات العالمية، ويقرن ذلك الاستعراض بأن أي كاتب مغربي آخر لم يترجم أحد أعماله ولو للغة واحدة؟ كنت أتركه يتحدث على هواه، أما بعض الأدباء المغاربة الآخرين، فلم يتركوه ليتبجح بلقب (الكاتب العالمي) وبترجمات أعماله، بل كانوا يشنون عليه بعض الغارات، ومن عدة جوانب، فيرتبك ولا يقوى على الرد، ويصاب بنوع من الإحباط بسبب عدم تسليم أصدقائه الكتاب ب"عالميته"، بل يعتبر عدم التسليم ذاك من قبيل الحسد.

كان يذكر (الكاتب الكبير) مُحَمَّد زفزاف بمحبة خالصة، وكان لا يخفي بغضه لإدريس الخوري، الذي أعلن غيرما مرة أنه يقاطعه، أما أنا فقد كان يصارحني قائلا:

ـ أشعر أن ما تكتبه هو أعمق مما أنا أكتب، ومع ذلك فقد حظيت بالشهرة التي لم تحظ بها، وهو حظ ساقته الظروف إلي.

مرة زارني الروائي والباحث السوري حليم بركات في بيتي في فاس، قادما من الولايات المتحدة، ومن (جورج تاون) حيث يُدرس بجامعتها، فطلب مني أن أرافقه إلى مدينة صفرو حيث توجد أسرة طالب مغربي يدرس لديه، وكان حليم يحمل لها مالا ورسالة، فركبنا سيارة نقل عمومية وجلسنا في مؤخرتها بعد أن كانت قد امتلأت بالركاب، وكان بجوارنا شاب أمريكي يعمل مصورا فوتوغرافيا لصالح إحدى المجلات، فتبادل الحديث مع حليم، وسأله حليم عمن يعرف من الكتاب العرب، فقال الأمريكي:

ـ أعرف كاتبا واحدا هو مُحَمَّد شكري.

هذه هي عالميته، وكأن ضحكته، وأحاديثه، ومرضه، وكتبه وصوره مع

المبدعين، كلها حكايات عاشها بطل أسطوري ملعون بلعنة الحياة التي أحبها.

مر الزمان على ذلك اللقاء مع المصور الأمريكي، وجاء يوم ظهر فيه المرض على شكري، فكرم مرتين في مدينة أصيلة، مرة من قبل اتحاد كتاب المغرب وأخرى من قبل مؤسسة منتدى أصيلة، وكثرت الشهادات والمداخلات من عرب ومن عجم، وعلى كثرتها لم يوجد من أصحابها من رمى شكري بسهام أو قلل من قيمته الأدبية، ما عدا متدخل واحد، هو الذي اعتبر عالمية مُحَمَّد شكري مجرد مزحة، وأنه هو نفسه عندما كان يذكر أنه كاتب عالمي فإنما كان يمزح مع أصدقائه. رأيت الغيظ في عيني شكري وهو يجلس على المنصة. فيما بعد قال لي:

ـكنت سوف أنقض عليه.

وكنت أعرف الضغينة التي توغر في صدر ذلك الكاتب المغربي المتدخل، فعلمت أنه قد جاء لتصفية حساب، والحق أنه ليس حسابا، فقد ظل شكري خلال الأصياف الماضية يتبرم من ذلك الكاتب عندما يأتي إلى طنجة، بل إنه قد طلب منه ذات مرة ألا يجالسه، وبمحضري، وهذا هو سبب الضغينة.

كنت المتدخل الأخير في تلك الندوة التكريمية، بعد أن استمعنا إلى تسعة وعشرين متدخلا، أغلبهم قدموا انطباعات عن حياة شكري وتجربته. وكنت قد أعددت دراسة نقدية عن الخبز الحافي، فقررت التخلي عنها وتقديم مداخلة بعنوان: "عالمية مُحَمَّد شكري"، وحيث بدا للجميع أنها رد مباشر على ذلك المتدخل الذي سخر من كون مُحَمَّد شكري كاتبا عالميا. برهنت على عالمية أدب شكري بثلاثة براهين، أولها أنه قد استطاع أن ينقل تجربته المعيشة من نموذجها المحلي: الريف/ تطوان/ طنجة، إلى تجربة إنسانية ممزوجة بالمعاناة، وثانيها أنه قد كتب تجربته الحياتية بكثير من الجرأة التي أسعفته على أن يصف نموذجا حيا للطفولة المغربية في أيام مجاعة الريف، وثالثها أن كتابه، سيرته الذاتية، الخبز الحافي،

قد ترجم إلى اثنين وعشرين لغة عالمية.

فصلت القول في هذه الأمور الثلاثة، وكنت أتدخل وأنا أنظر إلى شكري وهو جالس على المنصة فأرى ملامحه تنشرح.

ثم تدخل السيد مُحَمَّد بنعيسى وزير الخارجية والسفير السابق للمغرب في الولايات المتحدة الأمريكية، فعقب على مداخلتي بأنه عندما كان سفير للمغرب في الولايات المتحدة الأمريكية، قام بزيارة لمكتبه الكونكريس، فبحث فيها عن كتاب عربي ولم يجد أي كتاب عدا سيرة مُحَمَّد شكري "الخبز الحافي".

وقت للموسيقى

خلال الزيارات التي كنت أقوم بها إلى بيته اكتشفت ولعه الشديد بالموسيقى العالمية وموسيقى الشعوب. بدأ اهتمامه بالموسيقى من لقائه مع بول بولز، الذي لم يكن كاتبا روائيا ومترجما وحسب، بل كان يضع الألحان لموسيقى الأفلام، وكان يتوفر على مكتبة موسيقية هائلة منها استنسخ شكري العديد من النسخ لأعمال بتهوفن وتشايكوفسكي وباخ وغيرهم، وكان لا يبخل عليَّ وأنا أرغب في الحصول على نسخ من تلك الأعمال.

أخبرني ذات مرة بأن بول بولز طلب منه أن يكتب عبارة سوف تُطبع على غلاف قرص من ٤٤ لفة لأحد المغنين الأمريكيين، فكتب هذه الجملة: "موسيقى إله بشري".

ثم إن شكري قد قدم لإذاعة (ميدي ١) برنامجا إذاعيا تحدث فيه وخلال العديد من الحلقات عن رواد الأغنية العربية من عبده الحامولي وسيد درويش وصليحة التونسية وزهرة الفاسية والحسين السلاوي وغير هؤلاء. فأمدته الإذاعة بكل الأشرطة والمراجع الصوتية التي يحتاج إليها. تكونت لديه مكتبة موسيقية

هائلة أحسن تنظيمها على رفوف في بيته، إلى جانب مكتبة زاخرة بكل أعمال الأدب العربي الحديث والقديم ومترجمات من الأدب العالمي.

كان كلما استبد به التعب يطلق من جهاز الموسيقى ما يرغب في سماعه ثم يخلد إلى راحته وهو مستلق على الكنبة، يدخن سيجارته ويبدو كالحالم، والموسيقى تسمعه أو يسمعها، فتنطلق أساريره ويذهب في عالم مخملي جميل.

وقت لفتحية

عاشر مُحَّد أناسا كثيرين، واستأنس بالتعايش معهم. خصومات قليلة حدثت، كانت كملح الطعام. الأحياء ممن عاشرهم مُحَّد يتحسرون على وفاته ويذكرونه بالخير، من أولئك، السيدة فتحية. كانت فتحية أثيرة لدى مُحَّد، فهو لم يعاملها كخادمة في يوم من الأيام، بل كان يقدمها لأصدقائه عندما يزورون بيته على أنها "السيدة فتحية"، وكان يدعوهم إلى احترامها.

هي العالمة بأسراره وتقلباته النفسية وهواجسه وأصدقائه وأعدائه، حتى إنها لو وجدت من يساعدها على كتابة ذكرياتها معه لوجد القراء في تلك الذكريات العجب العجاب، فقد عايشته لأزيد من ربع قرن، فما تغيبت يوما عن الحضور إلى بيته، وهو كان يؤمنها على أسراره، ويمنع عليها أن يدخل البيت أحد من أصدقائه في غيابه، ما عدا السي عز الدين، كما قالها ذات يوم بمحضري، فوافقت على ذلك. وكان يبوح لها بكل أسراره، فعندما تأتي في الصباح يحكي لها كل ما فعله في الليل، ويشكوها من أغضبوه بأسمائهم، وكان يثق بها فيصرف لها المال الكافي لكي تقوم بتزويد بيته بحاجيات المطبخ، كما كانت تدفع فواتير الماء والكهرباء والهاتف، فما كان يحاسبها أبدا. ولقد أصبحت فتحية شهيرة بشهرة مُحَّد، حتى إن كل أصدقائه يعرفونها كما هي تعرفهم وتعرف مكانتهم الاجتماعية

وأمزجتهم ومدى إخلاصهم للصداقة مع مُحَمَّد. تضامن معها مُحَمَّد عندما اعتقل زوجها، وتضامنت معه عندما أصبح مفلسا، وكان على وشك أن يجد عملا، كنادل في "فيلا دو فرانس"، فلما أخبرها بأنه لا يستطيع أن يدفع أجرها الشهري، وأنه يعتذر عن توقيف خدماتها للبيت، أكدت له أنها تستطيع أن تخدمه، دون ذلك الأجر الشهري، وإلى الأبد. غير أن مالا غير متوقع قد جرى في حساب شكري البنكي، فعادت الأمور كما كانت. ومن يتساءل عن السبب الذي جعل شكري يوصي في وصيته بألف درهم شهرية لفتحية، عليه أن يجد الجواب في كونها قد خدمته طوال مدة تزيد عن ربع قرن، ولم تخدمه كخادمة، بل كانت قريبة من نفسيته وتقلباته المزاجية، وكانت تعرف أصدقاءه وأعداءه، كما عاشت معه أوقات صعوده وأوقات انهياره.

في حوار أجرته إحدى المجلات مع فتحية، تحدثت عن أنه هو من علمها الطبخ، وذكرت بعض أصدقائه، وعندما ذكرتني بالاسم، قالت إنني كنت أثيرا عنده، وأنني الوحيد الذي كان يوصيها باستقبالي في البيت، في غيابه. وتحسرت فتحية لكوني قد اختفيت عنها، فقد كانت تعتبرني أخا عزيزا. والحق أنها مشاغل الحياة تشغلنا عن الاهتمام بأناس نحترمهم، ونذكر ما عشناه معهم من لحظات.



وقت لمصطفى

كان مصطفى يعمل صباغا، وقد أتى ذات يوم إلى بيت شكري للقيام بأشغال الصباغة، بعد أن قام مُحَمَّد بإصلاح السطيحة وتسقيف جزء منها وتحويله إلى غرفة للجلوس. خلال ذلك تمتنت صداقتهما، وأصبح مُحَمَّد يعول على مصطفى في الطبخ، خاصة إذا ما كان يستضيف ضيوفا. وإذا ما كنتَ تعرف مصطفى والتقيته في شارع من شوارع طنجة فسوف يوقفك ليقرأ عليك نصوصا طويلة يمتزج فيها الشعر بالنثر، ولن يطلب منك رأيا، بل سيخبرك بأن شكري كان راضيا عما يكتب، ولن يطلب منك أن تساعده على نشر كتاباته، فهو سوف يخبرك بأنه يكتبها لنفسه ولا يقرأها إلا على أناس قليلين يستأنس بهم.



وقت للأماكن

طنجة

ظل مُحَمَّد شكري عاشقا لمدينه طنجة.

هي مدينته وهو واحد ممن يزهون بها.

ألفها وألفته، حتى إنه كأغلب من هاجروا من الريف إلى طنجة قد أصبح طنجاويا.

كل الناس الذين عرفوا مُحَمَّد شكري عرفوه في طنجة، من أدباء مغاربة وعرب وأجانب. بل إن معرفته بطنجة، تجوس في خرائطها السرية، وفي ذاكرتها

اعتبرها مدينته رغم أنه كالكثير من سكانها قد انحدروا من الريف من جهات قريبة منها، ولم يكن ذلك يضيره أو يضيرهم في شيء، كشأن أهل الريف الذين هاجروا منه إلى تطوان فاصطدموا بعيش مغاير وبثقافة أخرى يحملها سكان تطوان من ذوي الأصل الأندلسي، وكونوا لهم نسيجا خاصا من العلاقات الاجتماعية،

ورغم كونهم قد تاجروا بمختلف أنواع التجارة، فذلك لم يساعد على ذوبانهم في المجتمع التطواني، إذ بقوا محافظين على الكثير من القيم التي تخص أهل الريف. عرفت طنجة شيئا من هذا، لكنها لم تعرف أناسا منغلقين على أنفسهم، كما حال التطوانيين، بل إن السمة الكبرى لسكان المدينة هي الانفتاح والتعايش مع الآخر، أيا كان ذلك الآخر، وذلك راجع إلى أنها عاشت مرحلة وهي مدينة دولية تتعدد فيها الجنسيات والديانات والأفكار والمذاهب.

في هذا المنفتح الذي عرفته طنجة، عاش مُحَمَّد شكري، متأثرا بتلك السمة الكبرى للمدينة، فعاش منفتحا على الآخرين، متسامحا، متعدد الروافد الثقافية، وإن احتفظ بالكثير من القيم التي يعتز بها أهل الريف، ومن أبرزها الحفاظ على الكرامة، والإباء، والشمم، وعدم الرضى بالواقع.

حضرت طنجة في حياة شكري ومتخيله لها في حياته أفضل مما حضرت في كتاباته، التي حولتها إلى مجرد جغرافية لأسماء الشوارع والأماكن، حتى غدت مدينة يصعب القبض على روح من أرواحها أو تجل من تجلياتها.

بحس واقعي تعامل مُحَمَّد شكري مع طنجة في كتاباته، ومن يسعى إلى قراءة صورتها في تلك الكتابات، سوف يجد نفسه أمام خرائط المكان، لا أمام تملك الأمكنة بكل أبعادها التاريخية ودلالاتها الجمالية.

ما كان بإمكاني أن أبدي هذه الملاحظة، أمام مُحَمَّد، وفي حياته، لأنه كان سوف يغضب مني، وذلك لغيرته على "طنجاويته"، حتى إنه كان لا يستسيغ أن يكتب غيره من الروائيين عن طنجة (أوبها)، فكان يستغرب أن يكتب مُحَمَّد برادة روايته "الضوء الهارب" وأن أكتب أنا "مغارات" و"ضحكة زرقاء"، مبررا استغرابه بأننا لم نعش في المدينة كما عاش فيها هو، وأن من لم يعش في مدينة عشرين عاما متوالية لا يستطيع أن يكتب عنها. قال ما يقترب من هذا الكلام في حوار أنجز

معه، وظل يردد هذا الكلام في الكثير من المحافل. كنت أفهم أنه يحرص على أن يبصم إبداعاته ببصمة المدينة طنجة، لتكون له وحده.

في بعض الأحيان كان يقول: "الكل طنجته"، عندما يشعر أن إبداعات أخرى اشتغلت على فضاء المدينة، وأنها تزاحمه فيما كان يريد أن يكون له وحده.

كان شكري يقول: "أنا كاتب طنجاوي، ومن كتاباتي عن طنجة تحولت إلى كاتب عالمي".

مرة أشرت إلى أن الاسكندرية قد حضرت في أعمال لورانس داريل وإدوار الخراط وإبراهيم عبد المجيد وغير هؤلاء، وكانت لها خصوصيتها في عمل ينبني على رؤية الكاتب للمدينة وما عاشه فيها (أو عاشه أبطاله) من تجارب، فرد عليَّ متأففا: "لا يهمني ذلك"، فأنا طنجة، وطنجة هي أنا".

تملك شكري العيش في فضاءات طنجة، من الميناء إلى "سور الكسالى" كما كان يسميه، وهو "سور المعكازين"، إلى "البوليبار"، "عين قطيوط"، "شارع باسطور" ، والحانات الوارثة لمرحلة طنجة الدولية، إلى "رياض الأنجليز" و"مقبرة القطط والكلاب"، وإلى "فندق الموحدين"، و"أشقار" و"الرميلات"، "فيلا دو فرانس"، "مقهى مدام بورط"،و"السوق الداخل"، الذي يعرف دروبه وفنادقه ومقاهيه ومطاعمه وكأنها تحضر فوق راحة اليد، ناهيك عن الساحة الصغيرة وما يتفرع عنها من دروب، و"مقهى السنطرال"، الذي كتب فيه "الخبز الحافي"، وفيه تعرف على جون جونيه وتينسي وليامز.

رغم أن شكري قد عاش في هذه الأماكن وغيرها، فهي في كتاباته تبدو حاضرة بأسمائها، ودون مدلولات تاريخية وثقافية واجتماعية، أبطاله يعبرونها دون أن يقرأوا ما يتغير فيها وما يحدث فيها من خراب.

لكن ذلك لا ينقص من قيمة المكانة الأدبية لمحمد شكري، لأنه كاتب لجأ إلى الكتابة ليبدد قلق الحياة، ولجأ إلى طنجة ليكتب قلقه الأدبي بالصورة التي تشكلتفي وعيه الثقافي والأدبي.

فاس

أول مرة زارني فيها مُحَّد في فاس كانت في بداية السبعينات.

وهي جدتي (لالة أم كلثوم)، التي أصبحت صديقة لشكري، أعجبتْ بشخصيته وأعجب بشخصيتها، صادقته وصادقها، فأخذ كل واحد منهما يحدث الآخر وكأنه قريب منه، دون مسافات يصنعها السن أو يصنعها تباين البيئة واختلاف المواضعات.

خلال السنة الدراسية، اتفقنا على أن أبعث له بحوالة بمبلغ مائة درهم، ليشتري تذكرة القطار، ويشرب في حانة القطار بعض البيرات، فيومها كانت بالقطار حانة، وكانت البيرة تباع في المحلات بستين سنتيما، وفي الحانات بدرهم وعشرين سنتيما، وقد يصل ثمنها في حانة القطار على درهم ونصف، على الأكثر. أما تذكرة القطار من طنجة إلى فاس فلم تكن تتجاوز الخمسة عشر درهما. انتظرت وصوله عند باب المحطة. خرج وللتو أخذ يحكي لي عن تفاصيل الرحلة، دون أن يسلم، وكأني كنت معه منذ وقت قريب، قال غنه قد التقى بالمغنية الشعبية الحاجة الحمداوية، وقد حدثته عن حياتها الخاصة وحدثها عن حياته الخاصة، وتصاحبا. كان ثملا. أخذته إلى بيتي الذي كان في حومة "الدوح" فاطمأن وكانت له تلك المصاحبة الجميلة مع جدتي (لالة أم كلثوم).

قليلا ما اقتربت من أصدقائي الذين كانوا يزورونني في البيت، في حومة "الدوح" بفاس، وهي نفسها لم تكن تقيم معي بصفة دائمة، وقد لاحظت أنها لم

تقترب من صديقي الشاعر أحمد المجاطي الذي كان يزورني في البيت، فتقدم له بعض الأطعمة، دون أن تُطِيلَ معه في الكلام، أما شكري فقد تعرف عليها لأول وهلة ودخل معها في أحاديث طويلة، هو يحكي عن حياته في تطوان وطنجة وهي تحكي عن حياتها في فاس وأنا بينهما أتعجب لهذا التوافق الغريب. في ذلك الوقت، كانت جدتي تدخن سيجارة (فافوريت) وكان شكري يدخل سيجارة (كازا سبور). رأيتهما يتبادلان السجائر. هي تقول له:

- خذ من هذه العلبة.

وهو يقول لها:

- خذي من هذه العلبة.

أما أنا فقد كنت أدخن من علبة سجائري (أولمبيك الزرقاء).

لم يحك محمد شيئا مستفزا أو متنافيا مع الأخلاق التي تؤمن بها من يتحدث معها، بل أخذ يحدثها عن هجرة أسرته من الريف إلى تطوان، مشيا على الأقدام، وليس لهم سوى بغل يحمل الأغراض وأخويه الصغيرين الذين لا يقويان على المشي. وهي أخذت تحدثه عن أمها التي تزوجت رجلا آخر بعد موت أبيها فعاشت معه إلى أن بلغت الرابعة عشرة، فبدا شيء من جمالها، مما جعل والدتها تغار منها وتخاف أن يطمع فيها الزوج، فلم تكتف بحلق شعر رأسها وإنما قطعت بمقص أهدابها الطويلة.

كنت فرحا بحديثهما وإن أشعرني بأنني لاشيء في وجودهما، ولقد ظل محمد وحتى آخر وقت من حياته يسألني عن جدتي (لالة أم كلثوم)، وفي مرات كثيرة كنت أخبره بأنها كانت قد ماتت، فتبدو الفجيعة على وجهه، وحالما نلتقي مرة أخرى يسألني عنها فأخبره من جديد بأنها ماتت، فيعود لتظهر الفجيعة على

وجهه من جديد.

كنت خلال استضافته تلك أذهب إلى العمل في ثانوية النهضة التي تقع في "حي المخفية"، وأتركه في البيت وحيدا، يقرأ ويدخن. مرة قبل خروجي سألني عن الطريق إلى الثانوية، فوصفته له، رغم أنه ملتو بعض الشيء، وحال خروجي من الثانوية وهي ثانوية للبنات، وجدته واقفا ينتظرني، وقد تجمعت حوله التلميذات، وأخذن قلن له:

ـ أهلا بالسي الطنجاوي.

العبارة سحرته، لأنها صادرة عن فتيات ناعمات، وبعضهن في منتهى الجمال. هو نفسه أخذ يردد تلك العبارة، مقلدا أصواتهن.

أعقبت تلك الزيارة زيارة أخرى كانت بسبب مجيئه إلى فاس لاجتياز مباراة مهنية للالتحاق بإطار أساتذة السلك الأول ثانوي، أو ما يسمى اليوم بالإعدادي التأهيلي. خرجت معه في الصباح الباكر من حومة "الدوح" وفي طريقنا إلى "ساحة البطحاء" توقف مُحَمَّد عند بقال فانتظرته، وكانت مفاجأة لي أن أكتشف أنه قد اشترى بيضتين نيئتين. سألته:

ـ ما الذي سوف تفعله بهما؟

قال لي:

ـ لن أخبرك الآن. ستعرف فيما بعد.

شربنا القهوة في "مقهى الأندلس"، ثم ركب الحافلة التي سوف تأخذه إلى "الأطلس"، حيث سوف تُجرى المباراة في ثانوية مولاي سليمان، ابتداء من الثامنة صباحا.

في الساعة العاشرة، كان قد عاد إلى البيت. حسبته لم يُجْرِ المباراة. أخبرني

بأنه قد حضر في الوقت وأجرى المباراة. حرر الموضوع مباشرة، دون تسويد. وقال لي:

ـ بعد ساعة من الجهد العقلي أخرجت البيضتين من جيب سترتي.

سألته:

ـ وما الذي فعلته بهما؟

قال:

ـ شربتهما طبعا. كان الفوسفور قد أوشك على النفاذ من دماغي.

ـ شربتهما أمام المترشحين والمكلفين بالحراسة؟

ـ طبعا، لأنني كنت لا أستطيع أن أستمر في الكتابة إلا إذا شربتهما، لكي أزود دماغي بالفوسفور.

سألته:

ـ وهل كان ما كتبته جيدا؟

قال:

ـ ذلك بحسب المعايير التي يصحح من خلالها المصححون.

طوينا موضوع المباراة وعشنا يومين من التسكع في شوارع فاس ومقاهيها وحاناتها. فيما بعد، أخبرني بالهاتف، وبعد أن سألته، بأن نتيجة تلك المباراة لم تكن على ما يرام، وطوى صفحتها.

ليس أمرا عجيبا أن يرسب مُحَمَّد شكري في مباراة للترقية في السلم، بل هو الأمر المتوقع، لأن ثقافته العامة قد لا تنفع في تحليل موضوعات متخصصة أو شبه متخصصة.

زيارتان أو ثلاث أخرى قام بها شكري لفاس، ليكون ضيفا على فرع اتحاد كتاب المغرب بالمدينة، في قراءات قصصية، والزيارة التي استضافه فيها فرعالاتحاد من أجل لقاء مفتوح حول سيرته "الخبز الحافي" جعلت من ذلك اليوم يوما مشهورا.

في أغلب تلك الزيارات، كنت أنا من يدعوه، بصفتي كاتبا عاما لفرع اتحاد كتاب المغرب بفاس، بعد أن أضع اسمه في البرنامج العام الدوري، الذي يوافق عليه مكتب الفرع، ثم يعرض على اجتماع لجنة التنسيق التي تعقد بين فروع الاتحاد والمكتب المركزي، إلا أن زيارته التي تعلقت ب"الخبز الحافي" قد جاءت باقتراح من المكتب المركزي للاتحاد.

كنت مسؤولا عن تنظيم اللقاء بشكل مباشر، ابتداء من طلب القاعة وما يتبعه من تحمل لكل ضرر يلحق بها إلى استقبال الأديب مُحَمَّد شكري وتنظيم اللقاء الذي كان في برنامجه أن تُقدم ثلاث مداخلات نقدية حول "الخبز الحافي"، الأولى للناقد عبد الرحمن طنكول، والثانية للناقد رشيد بنحدو، والثالثة لمتدخل آخر لا أذكر اسمه، أما أنا فكنت منسقا للجلسة، ومقدما للضيف، الكاتب مُحَمَّد شكري، بكلمة عن مكانته الإبداعية وسمات ما تتسم به كتاباته في القصة القصيرة والسيرة الذاتية والنقد الأدبي. (في مجال الدراسات النقدية، أذكر أن مُحَمَّد شكري كان قد كتب در اسة مطولة عن "البطل والخلاص"، ومقالا عن ديوان صديقنا الشاعر العراقي علي جعفر العلاق، كما كتب مقالا آخر عن ديوان شعري للشاعر مُحَمَّد الشعرة، وهذه الإشارات، لا تعني تأسيس بيبليوغرافيا للدراسات النقدية التي كتبها مُحَمَّد شكري).

عودة إلى لقاء مُحَمَّد شكري مع جمهوره في فاس، فقد غصت القاعة بجمهور غفير لم يسبق له نظير في اللقاءات التي كنا ننظمها بين الأدباء والجمهور. لم يسبق أن حدث ذلك النوع من التزاحم والتدافع إلا في قراءة شعرية زجلية للشاعر عبد

الله زريقة، لم تكن من تنظيمنا في اتحاد كتاب المغرب، لكننا حضرناها، وبصعوبة كبيرة استمعنا إلى صوت الشاعر ونحن نقف على الأدراج، ثم بعد خروجنا، رأينا من اقتادوا الشاعر إلى المعتقل.

وصل مُحَمَّد شكري إلى فاس على الساعة الرابعة. استقبلته وأخذته إلى بيتي. رفض أن يتناول غذاء. أخبرني بأنه قد جاء من طنجة مع سيارة تاكسي، وأن السائق بسبب تهوره قد ارتكب حادثة أصيب فيها شكري ببعض الرضوض في قدمه، لكن ما كان أكثر خطورة لم يحدث.

دخلنا القاعة وسط تزاحم كبير. قدمت كلمتي حول شكري، وأشرت إلى الحادثة التي تعرض لها في الطريق وهو قادم من طنجة. هلل الجمهور وأخذبعضهم يحيونه ويهنئونه بصوت مرتفع بالسلامة. أزيد من ألف شخص تزاحموا فيقاعة ثقافية لا تزيد سعتها عن مائتي شخص. جمهور واسع لم نعهد مثله من قبل.وجوه معروفة لبوليس المدينة، اندسوا هنا وهناك. أعطيت الكلمة لعبد الرحمنطنكول ليقدم قراءته ل"الخبز الحافي". تكلم لثلاث دقائق. اهتاج الجمهور. بدا يصرخ:

ـ نريد الاستماع إلى شكري.

تشاورت مع أعضاء فرع الاتحاد الذين كانوا معي على المنصة، واتفقنا على أن نلغي المداخلات ونعطي الكلمة لشكري. اعتذرت لعبد الرحمن وأعطيت الكلمة لشكري. حيى الجمهور وشكره على حضوره. تحدث عن تجربته في الحياة وتجربته في الكتابة. أصغى إليه ذلك الجمهور الكثير العدد، فلم يحدث تعليق من أحد أو حديث بين شخصين أو حدوث ما يُفسد حسن الإصغاء. أنهى شكري كلمته. طالب الجمهور بالتحاور معه. أصبحت في حرج كبير، فكيف يمكنني أنا أو غيري من أعضاء فرع الاتحاد الحاضرين معي على المنصة أن تدير حوارا بين شكري وبين جمهور واسع يريد الألف شخص. تفطن شكري للمشكلة. قال

للجمهور بلباقة:

. يمكن أن نتحاور، وأنا شغوف إلى أن أسمع أسئلتكم، لكن اليد قصيرة، فأنا متعب، وقد جئت من طنجة، وتعرضت في الطريق لحادثة سير. من فضلكم، ارحموا تعبي.

صفق الجمهور. نهضنا من المنصة كإعلان عن انتهاء اللقاء. ظهرت مشكلة أخرى، وهي كيف نسل الشعرة من العجين، أي كيف نسل شكري من جمهوره لنخرج من القاعة إلى الشارع؟

تركت تلك المهمة لبعض أعضاء مكتب الاتحاد. مضى أزيد من ساعة خرج بعدها شكري وهو يضع رؤوس أصابعه على رأسه. عندما رآني قال لي:

. بسرعة. يجب أن نذهب إلى بيتك بسرعة.

بالسرعة التي طلبها أخلينا الطريق وسرنا نحو بيتي في "شارع أحمد أمين". أول ما دخل البيت قال لي:

. أعطني كأسا.

قدمتها له. سألني:

. من سيحضر في بيتك في هذه الليلة؟

أجبته:

_ مُحَمَّد السرغيني ورشيد بنحدو وعبد الرحمن طنكول.

قال:

_ إذا كان على مُحَمَّد الكغاط فأنا كما أرحب به في بيتي لا أشك في أنك أنت أيضا ترحب به في بيتك.

قلت له:

. أنا أعددت شرابا وعشاء يكفيان لعشرة أشخاص.

سألني:

. هل بالمال الذي حصلت عليه لاستضافتنا؟

قلت له:

. أنا لم أحصل عل أي مال من أية جهة. الضيافة في بيتي في هذه الليلة، من عرق جبيني.

تذكرت أنه عندما كان يستضيفني باسم فرع تحاد كتاب المغرب في طنجة، وبعد أن يتك اللقاء مع الجمهور، كنا نذهب إلى مكتبة قريبة "مقهى الروكسي" صاحبها يدعى الصنهاجي، وكان هو كاتب الفرع، فيقدم لشكري مائة درهم من مال الفرع مقابل عشائي، وهي لا تكفي للنقب بين فاس وطنجة ذهابا وإيابا، فكنت أتنقل على نفقتي، وأبيت في بيت شكري. حذثته بذلك، فقال:

. أتذكر. كنا كلما دعتنا جمعية ثقافية لمدينة من المدن نسافر على نفقتنا ونبيت في بيوت من يستضيفوننا. وعندما كنا نستضيف الكتاب الوافدين على طنجة من جهات أخرى كان الصنهاجي لا يمنحنا سوى مائتي (٢٠٠) درهم. فكنا ننفق من جيوبنا على الضيوف، أو نتقاسم معهم ما في جيوبنا وما في جيوبهم.

حضر إلى بيتي من كان مقررا حضورهم. لكن جرس الباب لم يتوقف عن الرنين. رغم أنني قد قررت ألا أفتح الباب حتى لا يحرجني أحد فقد ظل رنين الجرس لا ينقطع. سرعان امتلأ البيت عن آخره بمعارف وأشباه مثقفين، كلهم هجموا على بيتي للقاء بشكري كما قالوا. بدا غير مستريح لهذا الحشد من الناس، مرهقا، فاقدا لتألقه الذي اعتدناه منه في سهرات مماثلة. ذهب معي إلى

المطبخ فرأى ما عندي من طعام وشراب، فقال لي:

ـ لا تقدم الشراب والطعام لهؤلاء، ما دمت لم تدعهم، فهم متطفلون، سيملون من الجلوس ويغادروا البيت.

عاد إلى الصالة وتمدد على الفراش، وما هي إلا ثوان حتى كان قد نام. غادر الحاضرون، وعندما أيقظته جلس ونظر حوله تنفس الصعداء، وقال لي:

ـ اسرحت قليلا. هات الأطعمة والأشربة.

مرة وأنا في بيته، هجم علينا كاتب تونسي يعتبر كل الكتاب الآخرين تافهين، وأنه هو وحده الكاتب غير التافه. عندما صرح بهذا الكلام توقعت أن يدخل شكري معه في نقاش يؤدي إلى الخصومة، لكنه انتقل إلى غرفة نومه، وترك الكاتب التونسي ومن معه، إلى أن نهض وأطل على غزفة نومه فوجده نائما، وغادر البيت.

في زيارة أخرى قام بها مُحَمَّد لفاس، وهي ما قبل الأخيرة، كان قد جاء من طنجة مع الأخوين مُحَمَّد وعز العرب الكغاط من طنجة إلى فاس. فاجأتني زيارته، فقد كنت طريح الفراش عندما سمعت جرس الباب. فتحته. وجدت الأخوين مُحَمَّد وعز العرب الكغاط ومعهما مُحَمَّد شكري وهو على وشك السقوط. قال لي مُحَمَّد الكغاط:

ـ هو أراد أن يأتي إليك، ونحن أتينا به.

قلت له:

ـ مرحبا به، وبكما.

أصرا على الذهاب. سألته عما به فقال لي:

"وعدتني فتاة جميلة تعرفت عليها في طنجة بأن نلتقي في فاس، ولما جئت وحاولت الاتصال بها ظلت لا ترد على الهاتف، وحينما ردت أخذت تسوفني وهي تعطي موعدا ثم تخلفه وتعطي موعدا آخر، وفي آخر الأمر صارحتني بأنها تطلب ألفي درهم أدفعها لها مقدما، وأن عليَّ أن أحجز ليلة في فندق من خمسة نجوم، هي التي سوف تحدده، وقبل ذهابنا إلى الفندق، علينا أن نتعشى في مطعم راق، هي أيضا من سوف تختاره."

سألته:

. ولماذا لم تشترط عليك كل هذه الشروط وأنتما في طنجة؟

قال:

. أرادت أن تختبر درجة تعلقي بها، وهل سوف أتبعها من طنجة إلى فاس.

كان شديد القلق. نادما على مجيئه، وحالة النفسية سيئة. قدمت له كأسا لكي يهدأ فزاد الشرب من انفعالاته. أحس بالمهانة، فما هي إلا فتاة لعوب وها قد لعبت به. أحيانا بدا لي وكأنه سوف يجهش بالبكاء وأحيانا أخرى يهتاج ويشتم نفسه لأنه أحط بنفسه إلى درجة أن تلعب به فتاة لعوب. قال لي:

. في الغد سوف ترافقني إلى طنجة. لا أستطيع أن أعود وحدي. إن بقيت يوم آخر في فاس فسوف أنتحر.

سألته عن الأخوين الكغاط فقال:

. عز العرب عاد في هذه الليلة إلى طنجة، وأنا لم أشأ أن أعود معه وأنا على هذه الدرجة من الانفعال، فجئت إليك، ومُحَمَّد بقي في فاس، فهو يُدرس المسرح في جامعتها كما تعلم.

سألته:

. هل تخاصمت معهما أو مع أحدهما؟

قال:

. لا أبدا. كانا لطيفين معي.

عرفت أنهما قد تحملا من انفعالاته الكثير.

سألني:

. ماذا تقول؟ هل سترافقني في صباح الغد إلى طنجة؟

لك أشأ أن أخبره بمرضي، وأنني قد نهضت من الفراش ساعة رن جرس الباب، ولم أرد أن أخبره بأنني مقبل في صباح الغد، من الثامنة إلى الثانية عشرة، على تقديم درسين لتلاميذ البكالوريا في ثانوية ابن حزم، التي كنت أعمل بها، وذلك تحسبا لكونه سوف يحسبني قد تخليت عنه. قلت له:

. نذهب مع قطار السابعة صباحا.

تغيبت عن عملي ورافقته في القطار. أخذت أرقبه من حين لآخر وهو منتكس حزين، لا يحب أن يتكلم معي. وصلنا إلى طنجة. اقترح أن نذهب إلى "النيكريسكو" لنشرب كأسا هناك ونلتقي مع عز العرب الكغاط، الذي كان وقتها صاحب المحل. أجلسنا عز العرب بنفسه في ركن خاص، وخدمنا بنفسه، تواضعا منه، ثم جاء لمجالستنا. سأل شكري:

. والآن، كيف هي أحوالك؟

رد عليه شكري:

. مادمت في طنجة، فلا تخف علي.

ضحك عز العرب وقال لشكري:

ـ ما حدث لك ليس أمرا غريبا، فهو يحدث لكثير من الرجال مع النساء، وما كان عليك أن تنهار إلى ذلك الحد.

استيقظ فيه شمم الريفي فقال بحزم:

ـ علينا أن نطوي هذا الموضوع.

تناولنا طعام الغذاء في المطعم. كان شكري، قد بدأ يشعر ببعض المشاكل مع طقم أسنانه الاصطناعي، الذي صنعه صانع أسنان في "السوق البراني"، يوجد محله في درب صغير قبالة الباب الجانبي للسوق المركزي، وقد صاحبته عدة مرات وهو يقلع أضراسه، استعدادا لأن يحل محلها طقم الأسنان الجديد. لذلك كان شكري يفضل صحنا من السباغيني الممزوجة باللحم المفروم والمغطاة بطبقة من الجبن، وقد أدخلت الفرن.

مع قطار الخامسة مساء، عدت إلى فاس.

أما المرة الأخيرة التي زار فيها شكري فاسا فأنا لا أذكر مناسبتها، لكني أعرف أنه قد عاد لزيارة فاس بعد تلك الزيارة المشؤومة. كما كان قد زارها من قبل، عدة زيارات، سواء بدعوة مني أو للمشاركة في ندوة الرواية العربية، التي كان اتحاد كتاب المغرب قد نظمها في فاس.

أصيلة

اعتدنا أنا ومحمد، ومنذ بداية السبعينات أن نلتقي في طنجة ثم نذهب لقضاء يومين أو ثلاثة في أصيلة. كان شكري يحب أصيلة ويستلطف أناسها، ويسعد برفقة بعض أصدقائنا الزيلاشيين، كما كان يتضجر من بخل أحدهم، فكان يقلد حركاته، وهو يقول لنا:

ـ انظروا كيف يفعل صاحبكم عند وقت الأداء.

ثم يُدخل يده في جيبه متظاهرا بأنه سوف يُخرج مالا لكنه يُبقي يده في جيبه، منتظرا أن يبادر أحدنا إلى الدفع. نضحك أنا وهو، ولا يضحك صاحبنا البخيل، لكنه لا يعلق بشيء، ولا يبدو عليه أي نوع من الانزعاج، فما يفكر فيه هو أن يكرر نفس الحركات عند وقت أداء قادم.

اشتركنا أنا ومُحَّد في حب أصيلة، منذ السبعينات، ولي معه فيها ذكريات جميلة. في منتصف السبعينات، فقد أتيحت لنا الفرصة، وعلى شاطئ أصيلة نفسه، الذي كان وقتها شبه خال من المستحمين، وحيث كانت مسافات كبيرة تفصل بين مستحمين في البحر وآخرين. لذلك كنا نجلس في جلسات هادئة، مع الطاهر بنجلون، وإدمون عمران، وخليل الغريب. لم نكن بذلك اللقاء الصيفي على شاطئ أصيلة نزعج أحدا، أو نأخذ شيئا من أحد، أو نتقاضى تعويض إقامة من أحد. كنا نتجول في دروب المدينة، وأنا ألتقي ببعض "الأبطال المحتملين" لرواية سوف أكتبها فيما بعد، بعنوان: "رحيل البحر".

مرتيل

خلال منتصف التسعينات، أتيت مرة من مرتيل إلى طنجة لزيارة طبيب، ولما تمت الزيارة خرجت إلى الشارع وأنا أفكر في أن أزور شكري في بيته. ما رفعت نظري حتوجدته أمامي، وهو يقف مستندا إلى حائط، في حالة ذهول. استغربت لحالته تلك. سألته:

ـ مُحَّد. لماذا تقف هنا هكذا؟

قال وهو لم يخرج من ذهوله بعد:

ـ شايط.

فهمت أنه يشعر بحالة من الضياع. اقترحت عليه أن يذهب معي إلى مرتيل لبعض الأيام. وافق. ذهبنا إلى بيته فحمل ما يحتاج إليه من الملابس، وأوصى فتحية بوصاياه حول كلبه "جوبا" وألا يدخل البيت أحد في غيابه، وأن ترد على الهاتف فتعرف من هو المتحدث، وأن تخبره بأن شكري مسافر.

اشترط عليّ أن أدفع أجرة مقاعد الخلفية في سيارة التاكسي حتى لا يركب معنا أحد، فقبلت. في تطوان طلب مني أن أشتري خمورا من نوع كذا وكذا وكذا وأن أشتري لحمامفروما، ففعلت. في بيتي فرح به الجميع. طلب أن يتناول البيصرة فأعدت له.أكل قليلا من البيصرة والكفتة وشرب كثيرا. خرجنا في المساء للتجول فيكورنيش مرتيل. شربنا الشاي في إحدى المقاهي. بدا هادئا لطيف الحديث وإن لم يضحك ولم يصخب كعادته. شيء من الاتزان أدركه، هو من كان يصحب ويضحكويحكي النكات ويجمع في حديثه بين سير الكتاب العالميين وبين حكايات عن ليليي ونهاري طنجة، بما يجعل الكلام ينطلق على عواهنه، دونتكلف أو تصنع. غير أن اتزان شكري في ذلك اليوم بدا لي وكأنه من ورائه شيئا.في الليل ملأت المائدة بأطباق الطعام فلم يأكل إلا القليل، وأخذ يشرب كأسامن هذه القارورة وآخر من تلك. فجأة سمعت جرس الباب. وجدت خمسةشباب أمامي، لا أعرفهم، أحدهم يحمل كيسا حدست أن به خمورا وآخر يحمل جهاز تسجيل كبير الحجم. سألني واحد منهم:

ـ أين شكري؟

أجبت:

ـ هو معي في البيت.

هموا بالدخول، عنوة، ودون أن آذن لهم. منعتهم واعتذرت بأن بيتي صغير لا يتسع لهم. قال أحدهم:

. نريد أن نجري حوارا مع شكري، ومعنا خمور نشربها.

قلت لهم:

. انتظروا. إن كان شكري يريد أن يذهب معكم إلى مكان آخر فأنا سوف أخبره برغبتكم.

كان شكري يسمع كل الحديث الذي دار مع الشبان، فقال لي:

. أنت لا تعرفهم ومن حقك ألا تُدخلهم إلى بيتك، وأنا لست على موعد معهم، بل إنني لا أعرفهم مثلك.

ثم خرج إليهم، وأخبرهم بأنه متعب، ولا يحب في هذا الوقت أن يجري أي حوار أدبي.

غادروا والغضب باد عليهم. عندما جلسنا قلت له:

. ها قد اكتسبتُ عداوتهم دون أن يكون لي سبب في ذلك؟

قال لي:

. لا يهم. كثيرا من الناس يعدوننا دون أن يكون هناك سبب للعداء.

ثم قال لي:

. هؤلاء الشباب يعلمون أنك كاتب مثلي، وأنك قد نشرت العديد من الكتب، فلماذا لم يفكروا في إجراء ذلك الحوار معك أنت، قبل هذا اليوم؟

قلت له:

. أنا لا أحظى بالنجومية التي تحظى بها أنت.

ـ بعض أهل الريف يستغلون شهرتي.

قلت له:

ـ أنا أنا فأهل فاس لا يرددون اسمي ككاتب، ومبيعات كتبي هي الأقل عددا في فاس.

قال:

ـ الصدفة هي التي أوصلتني إلى الشهرة. ظروف توفرت لي ولم تتوفر لغيري من الأدباء المغاربة، رغم أنني لا أكتب أفضل منهم، بل إن منهم من أعرف أنه يكتب أفضل مما أكتب.

عندما أعلنت رغبتي في النوم وهممت بأن أرفع القوارير عن المائدة طلب مني أن أبقيها في مكانها. نظفت المائدة ومنفضة السجائر وتركت القوارير في مكانها. أعددت له مكانا مناسبا للنوم، في الصالون نفسه، فقد فرشت الفراش بأزر نظيفة وأتي بمخدتين نظيفتين فضلا عن إزار وبطانية للغطاء، ثم وضعت على المائدة قارورة من ماء معدني وكوب للشرب، ثم ذهبت لأنام. في الساعة السادسة صباحا، استيقظت. أطللت على شكري فكان نائما. دخلت الحمام. أعددت قهوة ثم جلست إلى مكتبي أراجع المحاضرة التي سوف ألقيها على الطلبة من الثامنة إلى العاشرة صباحا، ارتديت ملابسي وذهبت إلى المدرسة العليا للأساتذة حريصا على أن أصل في الوقت تماما، وبعد أن أنهيت عملي في العاشرة عدت إلى البيت، وكان على مسافة خمس دقائق، ففتحت الباب ووجدت شكري جالسا يشرب. قلت له ممازحا:

ـ صباح الخير أيها البئر؟

رد علي:

. قال لي:

. أنت لم تخطيء عندما وصفتني بالبئر، فقد شربت بئرا من الخمور.

مر النهار. في المساء خرجنا للتجول في الكورنيش. التقينا لأحد زملائي في العمل فقدمت له شكري فكان رد حركاته هو التعالي والاستعلاء. حرام عليه. اسأت كما استاء شكري من ذلك التعالي المصطنع. قال لي:

. هل هذا أستاذ جامعي يُدرس الأدب العربي؟

قلت له: هو كذلك.

. وهل هو زميل لك في العمل؟

قلت:

. هو كذلك.

قال:

. ألم يخطر على باله أنك فضلا عن أن تكون أستاذا جامعيا مثله، فأنت تتفوق عليه بأنك كاتب روائي، وقاص، وناقد؟

قلت له:

. لا يهمني أن يخطر على بالي ذلك أو غيره، فأنا تعودت على أن أفصل بين كوني مبدعا، ولي إشعاع إبداعي في خارج الجامعة، وبين أن أقوم بواجباتي المهنية في الحدود المعقولة.

قال:

. وكيف تفسر بأنك قد قدمتني لذلك الأستاذ الجامعي، فبدا كالهارب، ولم يقل لي أية كلمة، ولو من قبيل المجاملة؟

قلت له:

. لا تشغل بالك بأمره. لو شغلت نفسي بمثل هذه الأمور لأصبحت أقابل العداء بالعداء، وأعيش على الأحقاد والضغائن، فلا أجد مزاجا لإنجاز مشاريعي الأدبية، ولا أعيش الفرح الذي أنشده في حياتي.

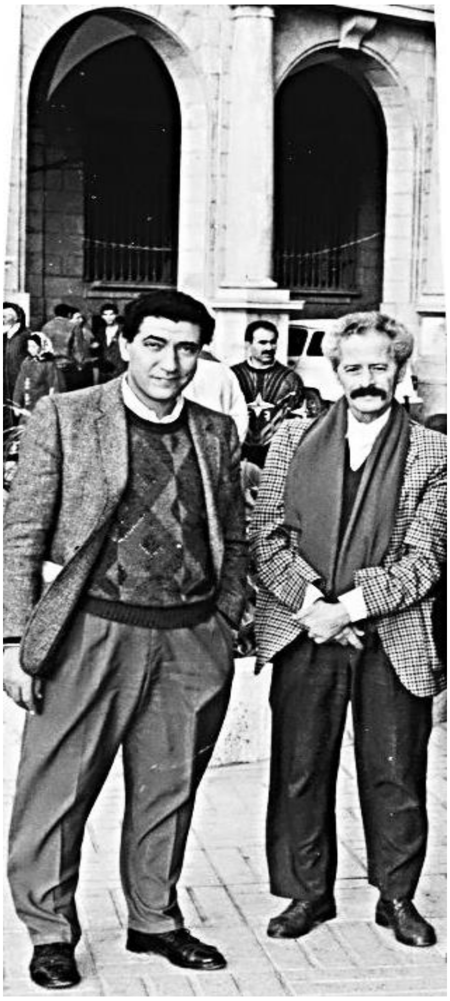
قال لي:

. خير ما تفعل.

في صباح الغد مشينا على الكورنيش القديم، فأخذ يحكي لي عن تاريخه. قاللي:

"كل هذه البنايات الصغيرة التي تطل على البحر كانت حانات، وكان عددها ٢٨ حانة. هل تعرف كيف عرفت عددها؟ عرفته من خلال تجربة عشتها ذات يوم، في نهاية الأربعينات، وأنا فتى صغير، وكنت لا أعرف السباحة، فدخلت البحر وكدت أغرق. أنقذني من الغرق بطل كان معروفا في ذلك الوقت، اسمه عبدون فوروسو، ومعنى فوروسوبالاسبانية: القوي. ثم إنني وبعد أن استعدت قواي قررت أن أشرب، وأم أشرب بيرة واحدة في حانة واحدة، ثم أشرب بيرة ثانية في أخرى. بدأت من الحانة الأولى. كان الأسبان يصخبون ويغنون وكانت الحانة تقدم مع كل بيرة صحنا صغيرا به سمك أو لحم أو دجاج أو سلاطة أو أكباد الدجاج أو أشياء أخرى بحسب الاختيار. فبقيت في كل حانة أشرب بيرة وأتناول صحنا من هذا أو ذاك، إلى أن سكرت وتخمت. أحصيت عدد البيرات التي شربتها فكان ثمانية وعشرين، وإذن فهي ثمان وعشرون حانة، لم تبق منها اليوم سوى حانة واحدة. ولا يمكن أن أصف لك ما وقع في تلك الليلة، فقد سكرت ونمت على رمال الشاطئ، إلى أن قرصني برد الصباح وأغشت الشمس الطالعة من البحر عيني، فكما تعلم، الشمس تطلع من البحر في مرتيل، بينما

هي تغرب فيه في أماكن أخرى.



تطوان

وفي صباح اليوم الذي بعده، ركبنا الحافلة الخضراء من مرتيل إلى تطوان. نزلنا في محطة قريبة من "رياض العشاق". لاشك أنه كان دليلي إلى تطوان، رغم أنني أعرفها جيدا، فقد أخذ يدلني على بعض الأماكن التي شكلت علامة بارزة

في حياته. ذهبنا إلى حانة "لاَبَّارَّا" في "الفدان". بمجرد ما دخلنا أخذ يتطلع إلى المكان ثم قال لي:

ـ ما تزال كما كانت قبل قرابة الثلاثين عاما.

ثم ظهر أمامنا رجل إسباني في حدود الخمسين، أشيب شعر الرأس. تطلع إليه شكري وقال لي:

ـ هذا ولد صاحب المحل. عرفته من الشبه بينه وبين أبيه.

سألته:

ـ كنت قبل ثلاثين عاما تأتي للشرب في هذه الحانة؟

رد علي:

ـ بل كنت أقوم فيه بالسخرة. إذا ما احتاج الطباخ إلى الملح أو الخل أذهب إلى جلبهما من البقال، وإن احتاج أحد الزبناء إلى السجائر أجلبها له من "اسطانكو".

سكت لبعض الوقت ثم قال لي:

ـ كانت غالبية الزبناء من الإسبان. ورغم تأزم الأوضاع الاقتصادية في إسبانيا فقد كان فعل الخير من طباعهم الأصيلة. أحدهم قال لي: "نطلب الخبر وحده من إخواننا المغاربة فلا يعطوننا إياه، ونطلب الخبز من الإسبان فيعطونا إياه ومعه الإدام".

ثم قال لي:

ـ هذا الرجل الاسباني كان في سني، وقتها، لكنه كان يذهب إلى المدرسة أما أنا فكنت أعمل صبيا في حانة والده. لكنه في الغالب قد فشل في دراسته، ثم

عندما ورث الحانة أصبح يديرها بنفسه.

قلت له:

. تحدث معه.

قال لي:

. لو كان والده حيا لتحدثت معه، أما هذا الرجل فماذا سأقول له: أقول له كنت خادما في هذه الحانة يوم كان صاحبها هو والدك؟ سوف يزدري بي، لأنه لا يعرف مكانتي اليوم.

ثم صمت قليلا وقال لي:

. لا فائدة من الحديث معه. لو كان صاحب فكر وثقافة لما انتظر وهو يتصعلك أن يموت والده ليجد الحانة جاهزة أمامه، ليصبح هو من يديرها.

ابتسم وقال لي:

. هذا هو حال الأثرياء، يعلمون أولادهم الاعتماد عليهم وعلى ثرواتهم، فيتعيشون على الأموال التي يهبونهم إياها وعلى انتظار موتهم ليبددوا تلك الثروات التي ورثوها.

غادرنا الحانة. تركت له أن يكون مرشدي. سرنا نحو "الطرانكات". صعدنا الأدراج. بمجرد ما استدرنا على اليمين قال لي:

. هنا كانت أمي تبيع الخضر.

مشينا خطوات قليلة، فأشار إلى حائط وقال لي:

. انظر إلى هذا الحائط!

نظرت إليه. قال لي:

. هنا كنت أنام في ليالي الشتاء، منكمشا على نفسي.

قال لي:

. لم تسألني لماذا كنت أنام بجوار هذا الحائط وليس بجوار أي حائط آخر؟

قلت له:

. لم أسأل رغم أنني لم أعرف لماذا؟

قال:

. وراء هذا الحائط فرن وهو يقوم بإنضاج الخبز طوال الليل، لذلك كنت أستشعر الحرارة من ذلك الحائط.

بهت وأنا أتصور مُحَمَّد شكري قد عاش حياة المشردين وأطفال الشوارع. رأى الألم في عيني فقال لي:

. هذا المكان يحضر في الخبز الحافي بقوة.

سألته:

. ما الشعور الذي تشعر به وأنت تقف أمام حائط دافئ نمت بجواره لعدد من الليالي لا يمكنني أن أتصوره.

قال لي:

. كان ذلك تحت اضطرار وضرورة. بالنهار كانت أمي تبيع الخضر، وبالليل كنت أنا أعمل "صبيا" في مقهى "عين الخباز" الذي كان يتحول إلى حانة بالليل".

ثم قال:

. ما أحسن أن يكون للإنسان حائط يستند إليه، في الوقت الذي يكونفيه في حاجة إلى سند، وإن كان ذلك الحائط دافئا، في ليالي الشتاء، فهو أحسن حائط.

الريف

في آخر مرة زارني فيها في بيتي في مرتيل كان برفقة صديقه الروبيو. أخبرني بأنه في طريقه إلى الناظور، حيث سيركب الطائرة من مطار مرتيل إلى هناك، على الساعة الثانية بعد الظهر. كان على خصومة مع الروبيو. حاولت أن أصلح ما بينهما. طلب مني أن أترك أمر الروبيو له وحده، فهو أدرى به مني. تناولا معي الغذاء. حدثني عن جمعية دعته للقاء مع جمهور الريف الواسع. بالغ مُحَمَّد في الشرب. أخذت أنبهه إلى قرب موعد إقلاع الطائرة فوجدته لا يبالي. لم تبق لذلك الموعد سوى ربع ساعة، ومن الصعب أننجد سيارة تاكسي، أنا ليست لي سيارة. طلبت من جار يسكن في الشقة التي فوق شقتي أن يقدم لي ولمحمد شكري خدمة. عندما سمع اسمه بادر إلى أخذنا إلى المطار. عندما دخل مُحَمَّد والروبيو عندنا على أعقابنا. ظل جاري، وهو أستاذ للأدب الفرنسي في كلية الآداب، يبدي تعجبه. سألني:

ـ أهذا هو مُحَمَّد شكري، صاحب الخبز الحافي؟

قلت له:

ـ بالتأكيد. ولم العجب؟

قال:

ـ لم أكن أحسبه بهذا اللطف وهذا التأدب، فقد شكرني على أخذكم إلى المطار بعبارات رقيقة، في غاية الأدب.

سألته:

ـ ولماذا لم تكن تحسبه كذلك؟

قال:

. ظننت أن معيش طفولته الذي حكاه في "الخبز الحافي" قد أثر على سلوكه.
عفوا! حسبته ما يزال سوقيا كما كان في طفولته.

لم أجد ما أقول له.

بعد حوالي الشهر، التقيت بشكري في طنجة، وسألته عن رحلته إلى الديار الريفية، فقال لي:

"في القاعة الثقافية استقبلني جمهور كثير العدد، أغلبه من سكان الريف. تحدثت عن تجربتي في الحياة وتجربتي في الكتابة. أغلب مداخلات الجمهور كانت تبدأ بالفخر بكوني أنتمي إلى جغرافية هذه المنطقة وإلى تاريخها، ثم كانت توجه نوعا من العتاب، لكوني أكتب بالعربية ولم أكتب بالأمازيغية. وكان يوجه إليَّسؤال:

. متى سوف تكتب بالأمازيغية؟

كنت أجيب:

. إنني أتكلم "الريفية" لكني لا أعرفها كلغة للكتابة.

قاطعني أحدهم وقال لي:

. حروف تيفناغ يمكنك أن تتعلمها.

قلت:

. إنني كما تعرفون ولدت في الريف، في قرية "بني شيكر"، ونشأت فيه، إلى أن جاءت المجاعة فهاجرنا إلى تطوان.

بدا الارتياح على الوجوه. قلت:

. لكن الكتابة ارتبطت لدي باللغة العربية، وقدرتي على التعبير الأدبي بها، أما قدرتي على التعبير بالأمازيغية فهي محددة جدا، فما بالكم بأن أجعل منها لغة أدبية.

تحول الارتياح الذي كان باديا على الوجوه إلى استياء. قلت:

. أنا أدافع عن الأمازيغية لتكون لغة غير مهمشة، وأن يعبر بها كل الأمازيغيين بكل أنواع التعبير الفني والجمالي.

صفق الجمهور. قلت:

. لكني أعترض على أن تصبح اللغة الأمازيغية أداة سياسية للتفرقة بين العرب والأمازيغ، فالمغرب واحد، لكنه متعدد، من حيث الجغرافية، واللغات التي يتكلم بها السكان. نريد للأمازيغية أن تحتل مكانتها إلى جانب العربية.

صفق الجمهور. قلت:

. أنا ريفي من بني شيكر، جئت إلى الكتابة ولا أشعر بالفرق بيني وبين أصدقائي الكتاب الذين انحدروا من مناطق مختلفة من هذا البلد.

تطلع إليَّ الجمهور وهو يتساءل عن الفرق الذي لا أشعر به. قلت:

. بالطبع، فلكل كاتب تجربته الخاصة، وثمة فارق، فالأبعاد المحلية التي يستوحي منها الكتاب تجاربهم، هي مصادر غنى للتجربة، وتعدد لها.

قاطعني أحدهم وهو يحدثني بالريفية. قال لي ما معناه:

. آ شكري نحن نريدك سندا في حرب نخوضها ضد تهميش الأمازيغية.

قلت له:

. مع كامل المودة، يجب أن تعلم أنني لست مناضلا، ولا أشتغل مثلكم بالقضايا التي تشتغلون عليها، لا أستصغر عملكم، لكني كاتب ولست مناضلا حقوقيا أو مدافعا عن حقوق الآخرين. وأنا لا أصلح لأن أكون سندا لأحد، لأنني في حاجة إلى من يسندني ككاتب.

قال متدخل:

. كيف يكون حضورك ككاتب من الريف من بين كتاب مغاربة ينتمون إلى مناطق من جغرافيات مختلفة وكتاب آخرين عربا أو أجانب؟

قلت له:

. كما يكون وجودك أنت في الحياة اليومية. لا أحد في المغرب يشعر بأنه مضطهد بسبب انتمائه إلى جغرافية معينة. أما الكتاب العرب والأجانب، فقد انتبهوا إل وجودي ككاتب، ولم يهتموا بأصولي الريفية.

ثم سأل أحدهم:

. لماذا ترجم كتابك "الخبز الحافي" إلى ٢٢ لغة عالمية ولم يترجم إلى الأمازيغية؟

أجبت:

. لم يبادر أحد إلى ترجمته، والمعول عليك، أو على من ينجز هذه الترجمة".

أخبرني بأنه كان متذمرا من سياق الجلسة الذي كان ينبغي أن يركز على وجوده ككاتب، يحفل بالسرد واللغة والتخييل، وعلى قضايا الأدب والثقافة، لكن الحاضرين وظفوا حضورهم معه لطرح مسألة الأمازيغية، والأمازيغ. كان يعرف إلى أنني لست في حاجة إلى تذكير، لكنه قال لي:

. أنا أنفتح على الانسان أينما كان، لست سجين وعي ضيق، لأنني قرأت الكثير من الأعمالالأدبية التي تنتمي إلى تراث الإنسانية.

ثم أخبرني أنهم قد أخذوه إلى قريته التي ولد فيها "بني شيكر" فلم يجد منها سوى بيوت مهدمة، ولما سأل بعض الشيوخ هل يتذكرون والده وأسرته أجابوا بالنفي. قال لي:

. خيرا فعلت، عندما حولت اسمي العائلي من "الشِّيكْرِي" نسبة إلى "بني شِيكْرْ" إلى شكري.

ثم سكت وقال:

. أهدوني بورطريه لعبد الكريم الخطابي رسمه رسام ساذج. قلت لهم: لقد خرجت من بني شيكر على ظهر حمار، وها أنا أعود إلى المنطقة على متن طائرة.

سألته:

. هل تنوي أن تزور الريف مرة أخرى؟

قال لي:

. هذه الزيارة تكفي.

وقت للقلق

عشت مع مُحَمَّد شكري الكثير من لحظات قلقه اليومي. تتوتر أعصابه لأتفه الأسباب، وقد يتصرف تصرفا يندم عليه، وإن كان من اعتذار فهو يقدمه لمن أخطأ في حقه. قلق يسهل تفسيره، فشكري عاش طفولة تعسة جعلته يفقد براءة الأطفال، وشبابا معذبا لم يفرح في إلا بما كان يتظاهر به من قوة جسدية يتحدى بها الآخرين، بين جد ومزاح. ولا شك أن أثقال الماضي قد أثرت عليه في كهولته، ففقد الكثير من الابتهاج والحيوية والفرح بالحياة، فلم يعد يمازح أحدا، أو يغني، كما كان. ولعل من بين أسباب ذلك القلق، أنه قد سافر إلى ألمانيا وهناك أجرى بعض الفحوص الطبية، أظهرت أنه مصاب ببداية التشمع في الكبد، وقد نصحه الطبيب بأن يكف عن شرب الخمر، وإن كان ولابد، فكأس أو كأسان، يضيف إليهما قدرا من الماء. حاول أن يلتزم بذلك لأيام بعد عودته، لكنه لم يصمد أمام

ما تحكم فيه من إدمان، فعاد إلى ديدنه، وهو يشعر بما قد ينتج عن ذلك من تطور في الإصابة التي اعترت كبده. لم يستطع أن يتخلص من عاداته اليومية، وإقباله على نفس المكان، في نفس الساعة، وليبقى فيه إلى آخر الليل، مبررا ذلك بأن أناسا كثيرين يقصدونه هناك. وكان يجد من يستخفون به، لتزداد أعصابه توترا، إلى أن ارتسمت على وجهه سحنة الحزن، وأصبحت نظراته غائبة، وبدأ يفقد الكثير من التركيز بسبب ما يعتريه من شرود.

تنقل شكري بين "حانة البريد"، و"مطعم الدورادو"، و"الروبيس، و"النكَريسكو"، ثم استقر به المطاف في "الريتز"، وكان في كل هذه الأماكن يجلس في نفس المائدة، التي يُحتفظ له بها فارغة، إلى أن يأتي. وكانت صوره، وما تزال، معلقة على جدران هذه المطاعم والحانات، احتفاء به وهو حي، ثم احتفاء بذكراه بعد وفاته. ومن يزور طنجة اليوم، يجد مطعما يحمل اسم "الخبز الحافي"، وفاء لصاحب لشكري وسيرته.

مع كل ذلك، ظل شكري يحمل جرحه العائلي الذي يوقظ مواجعه.كانت أخته رحيمو تحضر كثيرا في حديثه. أخبرني بأنها تقيم في سبتة، وأنها تأتي من حين لآخر إلى تطوان لزيارة والدتهم، كما كانت تزوره في بيته، لكن علاقته معها لم تكن على ما يرام.وكانت أخته مليكة محط اهتمامه وحبه، يضع صورتها فوق التلفزيون، إلى جانب صورة تجمع بينه وبين مُحمَّد برادة وعبد الوهاب البياتي، ولكن أيضا، بعد زواجها تدخل زوجها ليسأل شكري بالهاتف عما جاء في "الخبز الحافي" من تفاصيل تخص العائلة، ومليكة بالذات، فرد عليه بأنه لا يعرف عائلته ولا يحب أن يسأل عنها أي سؤال، وقطع الخط، لتنقطع علاقته بأخته الصغرى، وهي التي زرته يوما، فوجدته يستعد للذهاب إلى تطوان ليحضر ليلة عرسها، وكان قد اشترى لها ساعة ذهبية، ولبس أحسن ملابسه، فاقترح علي أن أذهب معه،

وعندما حضرنا إلى بيت والدته لم تظهر أي علامات للعرس، فاستغرب الأمر، وأخرج من جيبه الرسالة التي أُخبر فيها بليلة العرس، فتأكد من أنه لم يخطئ فيه، وعندما دخلنا الدار، أخبرته أخته رحيمو بأن العرس قد قُدم بيومين، وأن العروس سافرت مع عريسها إلى الدار البيضاء، فأحس مُحَمَّد بالألم، وعاتب أخته رحيمو لكونها لم تخبره بتقديم العرس، ثم عدنا أدراجنا إلى طنجة، في ليل متأخر. أما أخوه عبد العزيز، غلم يكن يلتقي معه، ربما لجفاء بينهما، لكننا ذات مرة ذهبنا أنا وإياه إلى تطوان، فأخذني معه لزيارة أخيه عبد العزيز في متجره بالسوق الملاصق لمحطة المسافرين القديمة، قبل أن يحترق، وقنا أمام المتجر لبعض الوقت، وشكري يتحدث مع أخيه، إلى أن طلب مني أن نغادر.

أخبرني بأنه لم يحضر جنازة والدته التي توفيت في تطوان، وذلك لأن إخوته لم يخبروه بالوفاة. لذلك كان ينسى أنها قد توفيت، ويهيئ نفسه للذهاب إلى تطوان لزيارتها، ثم يصفع جبينه بيده عندما يتذكر أنها قد توفيت.بعد وفتها، دعاه إخوته لاقتسام التركة،فاقترح أن تتم القسمة بالتساوي بين الإناث والذكور، لكن أخويه (عبد العزيز وأخ آخر لم يذكر اسمه) اعترضا على ذلك وطالبا بالقسمة الشرعية.

ظل شكري يعيش متاهته اليومية، بين بيته والأماكن التي يرتادها، يسير في نفس الطريق لسنوات، ويجلس في نفس المكان، في نفس الموعد، ويجتر الأحاديث المكرورة والمعادة كل يوم.حركاته الدائمة في الشقة هي نفسها، فهو ينهض من مكانه ليذهب في اتجاه المطبخ ثم يعود مذهولا ليقول لي:

. لا أعرف إلى أين كنت سأذهب. هذه الشقة على صغرها تصبح متاهة في بعض الأحيان.

يعود إلى مكان جلوسه وهو يعتصر جبينه. يقول لي:

ـ لا. ليس هكذا. عليك أن تضع رماد سيجارتك في المرمدة لا فوق المائدة.

لا أرد عليه.

وقت للنهايات

عندما اكتشف الأطباء أن مُحَّد شكري مصاب بسرطان الكبد، فقد تم إعلام الملك مُحَّد السادس الذي أمر بأن يحظى هذا الأديب بالرعاية الملكية، فنقل على الفور إلى المستشفى العسكري بالرباط، وخصص له طبيب نفساني برتيبة عقيد، لمرافقته وتقديم السند المعنوي.

عندما علمت بمرضه، اتصلت به بالهاتف، فجاءني صوته متوترا. لكنه عرف صوتي فقال لي بجدية متناهية:

ـ السي عز الدين. أعتذر لك. ليس لدي وقت للحديث بالهاتف. أنا أنتظر العلاج الكيماوي.

ثم قطع الخط. تأسفت لكون المكالمة لم تأت بالحميمية التي كنت أنتظرها، ووجدت له العذر، لكن شعورا غامضا قد داهمني، فأنا لم أتعود أن يحدثني شكري بتلك الصرامة وذلك الجفاء. كان ذلك أحسن، فلو ترك لي الفرصة لكي أتعاطف معه لكنت قد بكيت، كما بكت صديقتنا الاسبانية ماري بيل لاثارو، فيما بعد، وقد رحل شكري، فقدمت عرضا في تطوان عن أدبه وكتاباته في الرواية والقصة القصيرة، وبما أنه قد جلست في الصف الأول من الحاضرين فقد جعلتني أنا الآخر أتأثر حتى إن الكلمات لم تعد تخرج من حلقي.

ما الذي يمكن أن يقوله المرء لصديق عزيز أصابه المرض الخبيث وما علاجه سوى درء للألم؟

بعد أيام خاطبت شكري بالهاتف، وفي هذه المرة تلطف معي. ثم سألني:

.كيف هي حالتك الصحية؟

استغربت أن يسألني هذا السؤال، فهو المريض مرضا خطيرا، أما أنا فأمراضي قد تكون مزمنة ولكنها ليست قاتلة في أجل قريب. قلت له:

. أحب أن أطمئن عليك.

قال:

. اطمئن. العلاج يتم بانتظام وأنا لم أفقد الأمل في الحياة.

ثم قال لي:

. حافظ على صحتك، وأرسل سلامه إلى بعض أفراد أسرتي، ثم قطع الخط.

بعد ذلك، التقيت به في مناسبتين تكريميتين عقدتا معا لتكريمه في أصيلة، فكانت المناسبة الأولى من تنظيم اتحاد كتاب المغرب، حضرها أكثر من أربعين أديبا وناقدا، كلهم تدخلوا بمداخلات حول أدب شكري أو قدموا شهادات عن علاقتهم به. كان مُحَمَّد قد أصبح غصنا داويا، قليل الكلام، يضع قبعة القش على رأسه حتى يخفي شعره الذي تساقط بفعل العلاج الكيميائي.

كنت أصاب بالذهول فلا أستطيع أن أقترب منه أو أن أقول له شيئا. وإن تبادلنا بعض النظرات فأنا أسرع إلى إخفاء نظرتي حتى لا يقرأ ما فيها من أسى عميق، فقد كنت أعرف أن طبعه الريفي يمنعه من أن يكون في حالة ضعف حتى يتقبل المواساة من أحبائه، أما المواساة من خصومه فقد كان يحسبها تشفيا.

إيه! ها هو مُحَمَّد على وشك الذهاب، فكيف يمكنني أن أسيطر على هذا الزخم من الذكريات والتباريح واللحظات التي كنت أعرف أنها لن تتكرر!

رأيته يضع على رأسه قبعة القشفي الندوة التكريمية التي عقدها له اتحاد كتاب المغرب في أصيلة. كان الكولونيل، وهو الطبيب النفساني الذي عينه المستشفى العسكري لمرافقة شكري يتعرف على الأدباء المشاركين في الندوة، وقد خطرت على بالع فكرة، هي أن يلتقط صورا لأربعين منهم، شعراء وقصاصين وروائيين، وأن يقدم تلك الصور في معرض، وكذلك فعل.

أما محمد وهو الذي كان مولعا بشعره المتموج الذي اختلط فيه البياض بالسواد، يمشطه ويدهنه بالبرينتين، يتركه ليطول في بعض الأحيان، فقد أتى العلاج الكيماوي على شعره حتى إنه أصبح يُخفي رأسه في تلك القبعة من القش.

لم أتجرأ على أن أسأله أي سؤال عن حالته الصحية. أردت أن أقول له إن من يشفون من مرضهم، وبعد أن يكون العلاج الكيماوي قد أتي شعورهم، تنبت لهم شعور قوية، غير أنني أحجمت عن ذلك مخافة أن يحمل كلامي على غير ما أقصد من تقوية أمله في الحياة.

قبعة القش التي كان شكري يعتمرها هي التيفرقت بيننا. تبادلنا في تلك الندوة بعض النظرات ولم نتبادل إلا كلمات قليلة. هو أصبح قليل الكلام وأنا أصبحت لا أعرف ما أقول له. جدار أقامته قبعة القش بيننا، حتى إنني قد تمنيت لو تخلى عنها محمد وظهر أمام الناس برأسه العاري من الشعر. قبعة نفسية، محاطة بشريط من حرير، ما كان بإمكان محمد أن يتخلى عنها، كما لم يكن بإمكان المرض أن يتخلى عنه، والعجيب أنه قد اعتذر عن أن تؤخذ له بعض الصور مع أصدقائه، ربما، لأنه كان ينتظر أن يُشفى وينمو شعره فيتخلى عن القبعة، وساعتها يقبل أن تؤخذ له الصور مع أصدقائه ومع المعجبين من قرائه.

حلم حلمه شكري بأن تكون له مؤسسة ثقافية تحمل اسمه وتحفظ أعماله من معرض دائم تُعرض فيه مؤلفاته وترجماتها إلى اللغات العالمية ومكتبته الموسيقية

وأشياؤه الصغرى التي تدل عليه، من رسائل وصلته من مبدعين عرب وأجانب، وصور له مع الأدباء العرب والأجانب، فضلا عن مكتبته الموسيقية.

أوصى شكري بوصية تحيل كل ممتلكاته إلى "مؤسسة محمد شكري"، من مال محفوظ في البنك، وعائدات لمبيعات ترجمات كتبه إلى اللغات العالمية، اطلعت على نصها، ومن البنود التي شملتها الوصية أن محمد شكري يخصص مبلغ ألف درهم (١٠٠٠ د) للسيدة فتحية، كتعويض عن خدمتها له طوال سنين طويلة.

تفاصيل الوصية، أحيلت على مكتب وزير الثقافة الشاعر محمد الأشعري، فقرر دعم المؤسسة، بأن يكون لها مقر في طنجة، تمنحه الوزارة، كما تعين للمؤسسة إدارة تقوم بتسييرها ثقافيا، وحيث تنظم كل عام ندوة حول محمد شكري، وتنظم ندوات أخرى على مدار شهور السنة، كلها تشتغل على الرواية والسيرة الذاتية، والسير الأدبي بكافة أوجهه.

من لا يفرح بمشرع مؤسسة كهذه؟

كلنا فرحنا له، وتحمسنا لتغذيته بكل المقترحات التي ى يبقى لها سوى التفعيل. تصونا أن منارة ثقافية سوف تضاف إلى طنجة، وهي تحمل اسم: "مؤسسة محمد شكري". كان ذلك هو فرحه، وكان آخر ما يمكن أن نهديه له. غير أن شيئا من ذلك الحلم لم يتحقق.

قبل شهر من وفاة محمد جئت إلى طنجة ومررت بناصية فندق (الريتز)، فالتفت نحو الداخل. مكانه الأخير، فسمعت صوته يناديني. كان قد رآني من داخل المقهى وخرج يناديني، وألح علينا في أن نشرب معه شيئا. كان في وضع عصبي سيئ، وهو يتحدث عن سقوطه في الشارع، وتخلي أحد أصدقائه عنه، وسرعان ما جاءت فتحية إلى المقهى فطلب منها أن تقدم شهادتها أمامي.

أصبح مزاحه عكرا على الدوام في السنوات الأخيرة، وكان في السنوات الأخيرة كلما جالسته يطلب مني أن أدفع ثمن ما نشرب، ويخرج من جيبه نقودا كثيرة فيقول:

ـ بإمكاني أن أدفع، ولكني أحس بمتعة أن تدفع أنت، فكلهم، أدفع عليهم ولا أحد منهم يدفع علي.

حينما كلمته بالهاتف وهو في المستشفى العسكري بالرباط كنت مضطربا لا أعرف ما أقول، أحذر من أن أقول كلمات تؤذيه دون قصد مني، وقد صعب علي الكلام، بينما كان رابط الجأش، فلما سألته هل هو بحاجة إلى شيء أقدمه له، أجاب بأنه ليس في حاجة إلى شيء. بدا راغبا في أن أنهي المكالمة.

أحسست بالألم الذي يشعر به، وأحسست بفقدانه وبأنه في طريقه إلى الموت. قطعت المكالمة وأجهشت بالبكاء. لو كان قد رآني أبكي لقال لي:

ـ ابك نفسك ولا تبكني. لو كنت أنت من يقبل على الموت لما بكيتك. البكاء لا معنى له. والذكريات هي الأهم، هي كل ما يتبقى.

غير أنني لم أعرف أكنت أبكيه أم أبكي نفسي، وربما كنت أبكي كل من فقدناهم من أصدقائنا الأدباء والشعراء والفنانين المغاربة: أحمد المجاطي، مُحَمّد الخمار الكنوني، عبد الله راجع، مُحَمّد تيمد، ومن أصدقائنا الأدباء العرب، الراحلون: عبد الرحمن منيف، هاني الراهب، غائب طعمة فرمان، وغيرهم ممن اشتركت معهم في أوقات منذورة للذاكرة، لم يطوها النسيان

وقت للرماد

هو رماد الرماد!

ما أضيع العمر وهو يتحول إلى رماد!

كان شكري يمتلأ بحب الحياة، يضحك ويمرح ويحكي النكات ويغني وأحيانا يهرج أو يلعب بعض الرياضات من بينها أنه كان يقف بالمقلوب على كرسي ورأسه إلى تحت وقدماه إلى فوق.

وكان شكري يكره التجاعيد التي ظهرت على وجهه وعنقه، فيمد يده إليها ويقلصها ثم يقول لنفسه وهو واقف أمام المرآة: الآن أصبحت أكثر شبابا، ولو للحظة.

وكان شكري يعرف الآلاف من الأشخاص وكلهم يحيونه ويحترمونه.

وكان شكري محبا للأطعمة والأشربة، رغم أنه كان يأكل قليلا ويشرب كثيرا.

وكان شكري تفاصيل حياة يومية ملفوفة في غلالة أسطورته الشخصية، التي يغذيها بالمبالغات، وهو يضخم ما يريد تضخيمه من بعض أوضاعه ومواقفه.

وكان شكري ريفيا ولد في الريف ببني شيكر، ثم هاجر مع أسرته من الريف بسبب المجاعة إلى تطوان.

وكان شكري يتكلم الأمازيغية، لأنه تشربها في طفولته، غير أنه كان عربي اللسان، يكتب باللغة العربية ويحرص على سلامة قواعدها.

وكان شكري ثم كان، كان الحبق والسوسان، والطاق وطرطلاق، والكبش المشوي عالأوراق، ثم كان الرماد ورماد الرماد، وما بقى غير واحد شكري حاضر فالذاكرة كل نهار تيقول لي آ السي عز الدين يا الله نشربوشي كاس.

وكان شكري ثم كان، كما أنا كائن وسأكون، وكما أنتم كائنون وستكونون. لكن الرماد هو الرماد!

الفصل الثالث

عندما يموت الكُتّاب
لا تموت الكتب

". هل تخاف الموت؟

. لا أخافه.

. هل تخاف شيئا غير الموت؟

. أخاف الظلام".

(من حوار تلفزيوني أجرته فاطمة التواتي مع مُحَمَّد شكري)

"توقفت أمام إصطبل الحيوانات. اتجهت إلى ركن وجلست مسندا يدي على ركبتي متقرفصا (...) رائحة الحيوانات كريهة. على بعد خطوات مني فرس واقفة. شبكت ذراعي فوق ركبتي ونعست. نمت جالسا خائفا من أن يغتصبوني. أحسست برشاش حار كريه الرائحة يسقيني. انتفضت برعب. شتمت العالم. الفرس تكمش فرجها وتفتحه وتتحرك إلى الوراء. نهضت بسرعة وابتعدت عن المكان".

(الخبز الحافي، ص ١٠٤)

شعرت أنني أذهب مع ذهابه. إن لم يكن موتا فهو إحساس بالنهاية. جيلنا الأدبي يأكله الموت واحدا بعد الآخر. في كل عام نفقد وجها من الوجوه الأدبية التي أسست للحداثة والتحديث في النقد الأدبي الشعر والرواية والمسرح والقصة القصيرة، حتى إن أحد الأدباء وهو يُنَكِّتُ قال:

ـ الدور القادم سيكون على روائي.

سألناه:

ـ ولماذا يكون روائيا؟

قال:

ـ لأن كثيرا من الشعراء والقصاصين والمسرحين قد توفوا، ومنذ وفاة مُحَمَّد زفزاف لم يتوف أي روائي.

ضحك وقال:

ـ على الموت أن يكون عادلا، فماذا سوف يحدث لو حصد كل الشعراء أو كل القصاصين.

سأله أحدنا:

ـ والنقاد؟

قال:

ـ سيأتي دورهم.

عندما وقفت على قبره في ساعة الدفن، كنت أراه واقفا بجواري يتابع المشهد، وكأنه يواري في التراب بؤس الطفولة وشقاوة الأيام وقبح الحياة التي حاول أن يُجَمِّلَهَا كثيرا، فلم تتجمل.

هو نفسه من كان يقول:

. علينا أن نعرف كيف نُجَمِّلُ الحياة. على قبحها علينا أن نعرف كيف نُجَمِّلُها.

كان يواري في قبره زمن أخطائه، وزمن أخطاء جيلنا، وأما نظرته وضحكته وصخبه ومحبته للحياة فستبقى مقيمة في ذاكرة أصدقائه ومحبيه، وفي ذاكرة من عرفوه من نادلي الحانات والمقاهي وباعة السمك في "السوق المركزي" ورواد "مقهى السنطرال"القدامى، ثم لاشيء. لا شيء سوى هذا. وهو نفسه، لو اشتهى وهو حي شيئا لما اشتهى غير أن يبقى في الذاكرة، خارج "زمن الأخطاء"، داخل محيط من أحبوه وأخلصوا لصداقته، وهم من النادرين.

قبل وفاته، في ليلة يوم الأحد، السابع من ديسمبر ٢٠٠٣، أصابني اختناق شديد صعب علي معه التنفس، لم ينفع معه الشراب الطبي. لا سعال. صعوبة في التنفس، وكأن يدا من حديد تضغط على صدري.

خلال نوم قصير رأيت فيما يرى النائم أنني أنا ومحمد شكري ننام بثيابنا على الأرض في ساحة من الساحات، حسبتها توجد في باريس، والناسيمرون من حولنا فينظرون إلينا بترفع كما يُنظر إلى المهمشين الذين ينامون في الشوارع. مددت يدي إلى معصمه. جسست نبضه. رفع عينيه نحوي وقال:

. لا تخف. ما زال قلبي ينبض.

تركته هناك في تلك الساحة. مشيت إلى مكان يشبه محطة علوية لمترو الأنفاق. الناس يتزاحمون على شراء التذاكر. وقفت في الصف خلفهم. عندما وصل دوري سألت الشابة الزنجية:

.كيف أصل إلى زنقة المدارس؟

قدمت لي خريطة. سألتها:

ـ هل من السهل أن أصل من هناك إلى فندق سان جاك؟

تجاهلتني. أخذ مكاني من كان ورائي. نزلت الأدراج. احترت في أي الاتجاهات سوف أذهب. نظرت إلى الخريطة. بدا لي الأمر معقدا. فجأة ظهر أمامي أناس كثيرون، أعرف بعضهم، ومن بينهم الروائي الفلسطيني الراحل إيميل حبيبي، فقال لي:

ـ لا تفزع على مُحَمَّد شكري، فقلبه ما يزال نابضا.

سألته:

ـ هل هو متشائل؟

قال لي:

ـ كلنا متشائلون.

ما كان من عبد الوهاب البياتي إلا أن ظهر أمامي فقال لي:

ـ إذا مات مُحَمَّد شكري فقد ماتت طنجة، وإذا مت أنا فقد ماتت بغداد.

سألته:

ـ ما معنى ذلك؟

قال لي:

ـ المدن لا تُذْكَرُ إلا بأدبائها ومفكريها ومؤرخيها، وحالما تُذْكَرُ طنجة، يُذْكَرُ معها الرحالة ابن بطوطة، والأديب مُحَمَّد شكري.

ظهر أمامي علي جعفر العلاق، الشاعر العراقي الكبير، الذي أسس لتجربته بديوانه "وطن لطيور الماء"، الذي كتب شكري عنه قراءة نشرها في أحد منابر

النشر الممكنة في ذلك الزمن السبعيني، ولم يكتب إلا لأنه قد أحب القراءة واعتنى بالصورة الشعرية. قال لي علي:

ـ سيموت كموت الشعراء. إنهم لا يموتون إلا جسديا، أما أشعارهم فتبقى لتدل عليهم.

بدت لي الأعوام والسنون وقد مضت، وأنا ألتقي بعلي جعفر العلاق في تونس، وبالذات في ندوة تكريمية للراحل محمود المسعدي، فذكرنا معا ذلك اللقاء مع مُحَمَّد في طنجة. وجدت علي قد أصبح ناقدا جيدا، يحفل بالسرديات، لكنه لم ينس الشعر، فقد أهداني ديوانين من آخر إصداراته، وطوال لقاءاتنا كان شكري يحضر بيننا.

صديقنا الروائي والأديب السوري، الطبيب الجراح في أحد مستشفيات باريس خليل النعيمي وهو يحمل في يده روايته الأولى "الرجل الذي يأكل نفسه"، وهو يقول لي:

ـ أنا متخصص في جراحة الكبد، وهو ليس بين يدي، كطبيب. كتبه هي التي بين يدي، كقارئ.

قلت له:

ـ هل سيموت؟

قال لي:

ـ كلنا سنموت. أنت لاشك أنك ستموت، لأنك ستموت.

ثم جلجل صوته بضحكة عالية وقال لي:

ـ مُتِ الآن وأرحنا منك.

قلت له:

. كيف أموت وأنا في باريس؟ رغم أن التأمين يمكنه أن يغطي نقل جثتي إلى المغرب، فأنا لا أحب أن أموت في باريس.

سألني:

. وأين تحب أن تموت؟

قلت له:

. في فاس.

قال لي:

. أحب أن أقول لك أيها الصديق العزيز أنه لن يموت أدبيا، لكنه سوف يموت سريريا.

ورأيت الشاعر حسن نجمي يقطع ورقة تذكرة ويقول لي:

. بها سنعيده إلى المغرب.

فقلت له:

. وهذا الحشد من الكتاب والصحفيين هل سيعود معه بنفس التذكرة؟

بدا مستغربا سؤالي. فقلت له:

. قلب مُحَمَّد ما يزال نابضا، فلماذا تستعجلون دفنه وهو حي ما يزال؟

قال:

. نخشى عليه من أن تبدأه تلك الدرجات القصوى من الألم.

رجعت إلى الساحة الباريسية التي كان ينام فيها مُحَمَّد على الأرض، فوجدته

ينتظرني. أخرج من جيبه أوراقا مالية كثيرة وقال لي:

. هذا المال أريد أن أكافئ به عاهرة كانت قد خدمتني في الفراش جيدا.

قلت له:

. من هي؟

قال:

. إنك تعرفها جيدا.

سألته:

. من هي؟

قال:

. لن أخبرك باسمها.

وسألته:

. أين هي؟

قال:

. في طنجة. إنها طنجة نفسها. هل تدعي الآن أنك لا تعرفها، حتى وقد كتبت عنها روايتين؟ هل أذكرك ب(مغارات) و(ضحكة زرقاء)، وسلالة كتبك التي سوف تأتي؟

قلت:

. هل طنجة عاهرة؟ وهل أنت عراف حتى تعرف ما سوف أكتبه عن طنجة؟

قال:

ـ قد أكون واهما أو حالما. أليس من حقي أن أكون كذلك؟

قلت له:

ـ من حقك يا مُحَمَّد.

اختبأ في حضني طفل صغير. أعادني إلى تلك اللحظات اللذيذة التي كنت أنيم فيها أولادي في حضني وهم صبيان، فأقص عليهم أحسن القصص. وأعادني إلى تلك السهرة التي سهرناها في بيت أحد أصدقائنا في فاس، في ذلك الزمن السبعيني، فتعب مُحَمَّد واعتلى الفراش ثم توسد ركبة مُحَمَّد برادة، ونام، فأخذ برادة يحنو عليه كطفل ويداعب برفق شعره، ونحن مذهولون لذلك المشهد الإنساني الجميل.

غير أن مُحَمَّدا بدأ يتألم، فتزحزح وشكا من ألم في صدرهوحنجرته، فأحسست الألم في صدري وحنجرتي.

نهضت من ذلك النوم. أخذت أقص على نفسي الحلم، وأنا أسعل سعالا حادا وصدري يتصدع، ودموع لا إرادية تتهاوى على خدي، والليل موحش والحمى الباردة تسكن بين الضلوع.

أحقا مات شكري؟

أي موت يستحقه؟

وهل هو يستحق الموت؟

أُخبرت بوفاته في العاشرة صباحا، وكنت في مرتيل، وجنازته كانت سوف تخرج من مسجد مُحَمَّد الخامس بعد صلاة العصر من ذلك اليوم من أيام رمضان. احترت كثيرا. كما كان لا يتوقع وفاته كنت لا أتوقع أن يموت. موته أعاد إلى ذاكرتي بعضا مما عشناه، كما أصابني بكثير من الشجن والحزن أن آتي إلى طنجة

فلا أجد صديقي محمد شكري حاضرا في بيته أو في حانة من الحانات، ليفرح بلقائي كما أفرح بلقائه.

حقا، إنه يُتْمٌ من نوع آخر، هو اليتم الذي لا يشعر به من فقد أبويه، بل هو اليتم الرمزي الذي يشعر به المرء حينما يبقى المكان فارغا بعد أن كان يملأه قريب من النفس، قريب من الأحاسيس، قريب من المشترك الجمعي، من حيث ما يكون عليه الكاتب من معاناة قوية تجمع بين معاناة الذات وقهر المجتمع ومقاومة التهميش والتطلع إلى مكانة أفضل.

في ذلك اليوم العصيب الذي حضرت فيه مراسيم الدفن، انتظرت أنا وعدد غفير من الكتاب والأدباء والصحفيين المغاربة عند باب مسجد محمد الخامس بطنجة، إلى أن وصل النعش من الرباط فأُدخل على عجل إلى المسجد وتمت الصلاة عليه بعد صلاة العصر.

كان يوما من أيام رمضان جاء فيه العديد من الشعراء والأدباء إلى طنجة ليشيعوا صديقهم الراحل.

غشاوة كانت على عيني جعلتني لا أتبادل سوى تحية سريعة بإشارة من الرأس، مع أصدقائي الأدباء الذين وفودوا من الرباط وفاس والدار البيضاء، وحتى صديقي الشاعر محمد بنيس الذي كنت لم أره منذ سنوات لم أتبادل معه العناق والتحية. كنت مكلوما إلى درجة أن أصابني الخرس والذهول.

الكاتب والباحث حسن أوريد، والناطق الرسمي باسم القصر الملكي، هو من أشرف بتكليف من الملك على جنازة شكري.

في مقبرة الشهداء تجمع خلق كبير لحضور ساعة الدفن. قرأ الفقيه آيات بينات من القرآن الكريم ثم ألقى عبد الحميد عقار، رئيس اتحاد كتاب المغرب،

كلمة تأبينية مأثرة، خاطب فيها الفقيد متعرضا لإنجازاته الأدبية وتفرد تجربته في الأدب العربي. وصف له مشهد التوديع. لم يخضع عبد الحميد في كلمته لما جرت به العادة في مثل هذه المواقف،ليرحم على الفقيد، وليدعو له بالثواب والمغفرة، بل استعرض في سلاسة عجيبة حياة وأعمال الراحل، وهو يخاطبه، كأنه يسمعه أو يراه. جعله يرى الواقفين على مشهد دفنه، الحزانى على فقدانه وكلهم من أحبابه، وهو يقول: "ها قد جاء أحبابك ليشيعوك، وستبقى حياتك وأعمالك في ذاكرتهم، حية ناصعة لا تقبل النسيان".

في اللحظة التي بدأوا يوارون فيها مُحَمَّدا التراب أصابني رعاش شديد لم أتمكن من التخلص منه وأنا أمسك بيد من كان يقف بجواري. توتر شديد أصاب جسدي كله فأخذ يرتعد رعدات قوية لم أسيطر عليها. لم أتذكر من كان يمسك بيميني ومن كان يمسك بيساري، وكل ما شعرت به هو أن يديهما كانت بتأثير قوي مني تعرفان ذلك التوتر نفسه. لم أستطع أن أنظر إلى وجهي من يقفان بجانبي، يمينا ويسارا، وأصابتني نوبة بكاء فأخذت أشهق شهيقا تقطعت له أنفاسي. تلكا الحالة نفسها سبق أن عشتها عند موت جدي مولاي أحمد العلوي. جاء من أرجعني إلى الوراء وأجلسني على حافة قبر ثم رش وجهي بالماء. دفنت وجهي بين كفي وأخذت أبكي.

لا أدري أكنت أبكي مُحَمَّدا أم أبكي نفسي. أحسست بعطش شديد، فقد وقف لساني كالشوك في حلقي. يوم رمضاني لا يمكن للصائم أن يشرب فيه الماء، حتى وإن بلغت الروح الحلقوم، لأن هناك من يتربص به، دون أن يكلفه أحد بذلك، ليتهمه بالكفر والإلحاد، لأنه شرب الماء في يوم من أيام صيام رمضان، وخير لذلك الذي بلغت روحه الحلقوم أم يموت عطشا من أن يعيش الرهاب الإسلاميوي المتطرف بقية حياته، من قبل من لا يعرفون الله إلا وهو شديد

العقاب، فينوبون عنه في العقاب الدنيوي، وهم لا يعرفون الله غفورا ورحيما.

بقيت كلمات عبد الحميد عقار التي ألقاها على الفقيد وهو على وشك أن يوارى التراب في أذني. حسبت أن كل المبدعين والكتاب والإعلاميين الذين حضروا الدفن قد تمنوا أن يوجد من يرثيهم بما رثى به الناقد ورئيس اتحاد الكتاب عبد الحميد عقار مُحَمَّد شكري.

في فطور رمضاني على نفقة الملك، اجتمع خلق كثير على موائد الإفطار. كلهم من الأدباء والإعلاميين وقليل منهم من أسرة مُحَمَّد.من جماعة (ميدي ١) لم ألحظ سوى الإعلامي التونسي الجميل، صديقي وصديق مُحَمَّد شكري، إبراهيم الغربي، أما الآخرون ممن عذبوا شكري وتلهوا به في حياته ثم لم يحضروا جنازته.

عشاء تكرم به الملك جمع الكتاب والمبدعين والإعلاميين وأسرة شكري على موائد عديدة. اقتربت مائدة تجلس حولها نساء لمحت من بينهن فتحية، أو السيدة فتحية كما كان المرحوم يناديها. تقدمت نحوها وتبادلت معها العزاء. قالت لي وهي تشير إلى سيدة تجلس معها حول نفس المائدة:

ـ رحيمو. أخت شكري.

تبادلنا النظر أنا ورحيمو. بدت لا تعرفني. لم يسبق لي أن رأيتها إلا مرة واحدة، في الثمانينات، عندما رافقت شكري إلى تطوان لحضور عرس أخته مليكة. قدمت لها عبارات العزاء. ثم قالت لي فتحية:

ـ وهذه أخته مليكة.

نظرت إليها مليا. تغير وجهها عما كان عليه من جمال ملائكي عندما كانت في السادسة عشرة، وإن كنت لم أرها وقتذاك فقد رأيت صورتها التي كان شكري يضعها على مكتبه، بجوار آلته الكاتبة. قدمت لها العزاء. لم ترد بكلمة. هي

وأختها بقيتا تتطلعان إلي. انسحبت من تلك المائدة تحت نظراتهما وأنا أسمع فتحية تقول لهما:

.كانت بينهما صداقة كبيرة.

من غير شك، فقد كانت أسرة شكري مسرورة بكون الملك مُحَمَّد السادس قد توجه إليها برسالة عزاء أذيعت على أمواج الإذاعة والتلفزيون. ربما هي المرة الأولى التي يُسَرُّ أفراد عائلة شكري منه، لأن الملك توجه إليه برسالة عزاء. سرور منه جاء بعد وفاته، ربما لم يسبقه سرور آخر خلال حياته. وهي نفسه في حياته لم يكن مسرورا بأفراد أسرته، فقد فَقَدَ سروره بهم، بعد أحداث ووقائع أحس بها بظلم ذوي القربي، وقد حكى لي تفاصيلها لكني لم أذكرها في هذه المذكرات، لأنها وجهة نظره هو، كما أنني لا أحب أن أسيء لأحد بما حدثني عنه مُحَمَّد من إساءات تلقاها من أفراد أسرته، كما أنني لا أحب أن أنكأ جراحا لأحد، فكل منا جراحه التي لا يداريها إلا بالنسيان.

كما جاء في عنوان إحدى قصصه القصيرة (بشير حيا وميتا)، الذي أستعيره هنا منه، فها هو جزء من سيرته يمثل أمامي، كما حكاه لي أو كما عشته معه، أو حتى كما حكيته لنفسي بعد موته، وفي كل هذه الحالات، كنت أمام (شكري حيا وميتا)، من خلال جماع من تلاحق الصور والأيام واللحظات التي عشناها لأزيد من أربعين عاما من الصداقة. إلا أن ذلك كله لا يعني سوى بعض المراثي لأيام العمر الجميل؟

خلال تقديمي لشهادة عنه بتطوان، بمناسبة تأبينه، وبينما أنا بصدد تقديم تلك الشهادة، رأيت المستعربة الإسبانية ماري بيل لاثارو تذرف الدموع، وزوجها بجوارها يقدم لها المناديل الورقية. كان ذلك كافيا لأن يحول كلماتي من رصانتها إلى كلمات مفعمة بالأسى، حتى طفرت الدموع من عيني أنا الآخر.

خلال مشاركتي في ندوة بكلية الآداب بالدار البيضاء، حول "فضاء الهامش في الرواية المغربية"، وكنت قد فرغت للتو من إلقاء عرضي حول "فضاء الهامش في رواية السوق الداخلي لمحمد شكري"، جاءني هاتف وكان محدثي يتكلم معي بصوت غليظ، شديد الانفعال. فاجأني بالقول:

ـ تلك الدار ألا نفترع المزلاج وندخلها؟

حسبته لا يقصدني بالمكالمة. قطعت الخط. اتصل من جديد. سألته:

ـ من أنت؟ وأي دار؟

قال:

ـ دار صديقك مُحَمَّد شكري. أنا أخوه.

لم أسأله عن اسمه. قلت وأنا أعاني من هول المفاجأة:

ـ ولماذا أنا سوف أفترع دار شكري؟

قال:

ـ نحن أفراد أسرته ولا يمكن أن يجتمع علينا الكراء. ثم إن في الدار وثائقه التي يمكن أن ترشدنا إلى حقنا في الإرث.

قلت له:

ـ أنا لا يمكنني أن أتدخل في هذه المواضيع.

قال:

ـ أردت أن أستعين بك لأنك كنت صديقا له.

سألته:

. من أعطاك رقم هاتفي؟

قال:

. أخذته من إحدى الجرائد.

وسألني:

. هل توجد لديك حقيبة أخي مُحَّد، التي أخذها معه من بيته في طنجة إلى المستشفى العسكري بالرباط؟

قلت له:

. أنا لم أكن معه سواء في سفره أو خلال وفاته في المستشفى.

قال:

. هناك شخص اسمه عبد الحميد عقار، قيل لي إن الحقيبة اليدوية لأخي مُحَّد قد بقيت عنده.

قلت له:

. لا أعرف.

سألني:

. والدار ألا تأتي معي لكي نفترع بابها؟

قلت له:

. لن آتي.

قطعت الخط. اتصل بي من جديد. أغلقت الهاتف. كان عبد الحميد عقار يجلس معي على المنصة، فلما فرغ من تقديم عرضه وخرجنا للاستراحة أخبرته

بالمكالمة، وبموضوع الحقيبة التي سافر مُحَّد شكري من بيته في طنجة إلى الرباط حيث المستشفى العسكري ثم توفي هناك. أجاب باستنكار شديد بأن الحقيبة ليست بين يديه، ولا يمكن أن تكون معه، لأنه سهر مع شكري في المستشفى هو وحسن نجمي وشخص ثالث ثم غادروا المصحة، وفي الصباح الباكر أخبروا بوفاته، كما أخبر القصر الملكي بذلك، فبدأ الاستعداد للجنازة.

حينما قرأت خبرا نشر في الجرائد عن سرقة وثائق من شقته أصابني الأسى، فمشروع "مؤسسة مُحَّد شكري" كان ما يزال في طور الإنجاز، ليضم وثائقه وكتبه ونسخا من ترجمات أعماله إلى اللغات، وكذا صوره مع الكتاب ورسائله معهم وأشرطته الموسيقية وحاسوبه وأشياءه الأخرى الخاصة، إلى قاعة ثقافية كانت وزارة الثقافة تفكر في إيجادها للمؤسسة، مع إيجاد طاقم إداري يعمل على تفعيلها من خلال أنشطة ثقافية مداومة ومنظمة، وهو مشروع هام وقفت من ورائه شخصيات وازنة في المجال الثقافي، وعلى رأسها صديقنا الشاعر، وزير الثقافة، مُحَّد الأشعري، كما عقدت عليه الآمال لحفظ تركة شكري الرمزية، وتلبية رغبته وهو على قيد الحياة، في أن تكون له مؤسسة تحفظ ذاكرته وتقوم بأنشطة أدبية وثقافية يومية وشهرية ودورية، وهو نفسه رصد لها من مال تركته ما يعود من مال عليه من ترجمات كتبه، غير أن ورثته قد اعترضوا على هذا المشروع، مطالبين بأن تعود إليهم كل حقوقه من الترجمات، بما هم ورثة، فأفسدوا نص الوصية التي بموجبها أسس شكري مؤسسته وهو حي يرزق، وقبيل وفاته.

دون جدل، فقد تبين أنهم ليسوا لصوصا ظرفاء، وإنما هو افتراع قام به عبد العزيز، أخ مُحَّد، لشقته، كما تبين أن الأمر لا يتعلق بأولئك اللصوص الظرفاء، وإنما بفعل فاعل حسب نفسه وريثا لتركة مُحَّد، هو إخوته، وهو بالتحديد، أخ مُحَّد، عبد العزيز، الذي افترع باب الشقة ونقل كل محتوياتها إلى مرأب (كراج)

بمدينة مرتيل، ثم قام بتكديس كل تلك المحتويات في المرأب فوق بعضها، دون أن يشعر بأن ذلك الإرث هو ليس إرثا للعائلة وحدها، وإنما هو إرث إبداعي ثقافي يهم كل المدعين والمثقفين، وأن حفظه هو حفظ لملكية عمومية تتعلق بشخص عمومي، لا بشخص ينتمي فقط إلى عائلته الصغيرة.

كان ما نقله عبد العزيز، أخ مُحَمَّد شكري، إلى ذلك المرأب، أشياء لا يعرف قيمتها الأدبية والرمزية، بل إنه أصبح يتاجر بها كقيمة مادية، ومن بينها:

. رسائل شكري التي تلقاها من أصدقائه.

. صوره مع الأدباء.

. أقلامه ونظاراته وحاسوبه.

. الأقراص المدمجة التي كان قد نسخ فيها من مكتبة بول بولز الموسيقية أجمل في الموسيقى العالمية والأخرى التي نسخها من إذاعة (ميدي !) وبها أعذب الألحان العربية القديمة، بصوت صليحة التونسية وسامي المغربي وغيرهما.

. ترجمات "الخبز الحافي" إلى اللغات العالمية، بما فيها الترجمة إلى اليابانية، التي قام بها المترجمنوبوطاهارا والترجمة إلى العبرية التي كانت حولها كثير من التجاذبات، لأنها تمت بموافقة شكري.

. صناديق كرتونية تبدو محشوة بأوراق كثيرة عرفت أنها تحتوي على مقالات نقدية كتبها نقاد من كل العالم حول "الخبز الحافي"كان وكيل مُحَمَّد يمده بها بانتظام، وأشياء أخرى.

. أشياء أخرى ليست هينة القيمة، تنتمي إلى الرأسمال الرمزي لنحمد شكري.

كل ذلك قد ظهر على شاشة التلفزيون، في برنامج مصور قصد ذلك

المرأب (الكراج) ليطلع النظارة على ما تبقى من مُحَمَّد شكري، وهو الركام الذي حاولت أن أصفه، دون أن أعلم بإحصاء تفاصيله، لأنني لم أكن على صلة بعبد العزيز، أخ مُحَمَّد، الذي فتح باب ذلك المرأب لشاشة التلفزيون.

كل ذلك الذي ظهر على شاشة التلفزيون كان هو الرأسمال الرمزي لكاتب نذر حياته للكتابة، وها قد تحول إلى مجرد أشياء مركونة فوق بعضها، محجوزة في مرأب (كراج) بمدينة مرتيل يقع تحت إمرة أخيه عبد العزيز. وبئس المتاجرة بالرأسمال الرمزي لكاتب عالمي كمحمد شكري، أو حتى المتاجرة بكاتب لا يصف نفسه بأية صفة. ذات يوم جاءني شاب مغربي يقيم في بلد من بلدان أوربا وطلب مني أن يصور معي شهادة عن مُحَمَّد شكري لصالح شريط وثائقي هو بصدد إعداده، فصور معي الشهادة، دون مقابل مادي، ولما أخبرته ب"الكنز" الذي يتوفر بذلك "المرأب"، واتصلت بصديقي عبد اللطيف البازي الذي كان على صله بعبد العزيز أخ مُحَمَّد، فقد طلب مبلغ ألف درهم مقابل التصوير فقط. أليس من دواعي الألم أن يكون للأديب مُحَمَّد شكري أخ كأخيه عبد العزيز، يتاجر برأسماله الرمزي؟

أخبرت مؤخرا بأن عبد العزيز قد نقل ممتلكات مُحَمَّد شكري الرمزية إلى مكان آخر في "حومة طنجاوا" بتطوان. أحسست أن روح مُحَمَّد هي التي عادت من طنجة إلى مرتيل ثم إلى تطوان.فقد تنقل مُحَمَّد بين هذه الأماكن، وها هي روحه، من خلال ممتلكاته الرمزية تتنقل بين هذه الأماكن. كما علمت أن بعض المبدعين في طنجة، يسعون مع مجلسها البلدي إلى إحياء فكرة مؤسسة مُحَمَّد شكري، وليت هذه المؤسسة يصبح لها وجود فعلي، لأن مُحَمَّد شكري، قبيل وفاته، وضع لها إطارا، وأوصى لها بمال.

بعد مرور عام على وفاة شكري، عشت الكثير من المحن، ولم أجده قريبا مني

لأشكوه وأبوح له.

في صباح يوم الجمعة الثاني عشر من نوفمبر ٢٠٠٤، الموافق للتاسع والعشرين من شهر رمضان، وهو ليلة عيد الفطر أو ما قبلها، استبدت بي ذكرى صديقي الراحل مُحَمَّد شكري. قررت أن أذهب للتو لزيارة قبره والترحم عليه، رغم مرضي وكثرة أشغالي.

لم يكن الأمر مجرد نزوة، بل حسبت أن روح مُحَمَّد شكري قد أخذت تناديني حتى أكون قريبا من قبره لأستحضر ذكراه وأصغي إلى صوته وهو يحدثني كما كان، وأبثه بعض المناجاة.

عبرت لها عما يجول في خاطري فوجدت لديها رغبة في أن نذهب سويا، على سوء ما كان بيننا من علاقة.

قبل أن نقدم على السفر من مرتيل إلى طنجة بدت لنا سحب كثيفة تنذر بالمطر. ترددنا في ذلك لأن الناس لا يزورون القبور في الأيام الماطرة، إلا إذا كان الفقيد حديث الدفن، ثم وجدنا أن السحب الكثيفة التي تغطي سماء مرتيل قد لا تكون هي نفسها تغطي سماء طنجة، فهذا أول الغيث والطقس يختلف بين المدينتين على قربهما. تدفق المطر مدرارا، ومع ذلك فقد ركبنا السيارة أخذنا الطريق إلى طنجة في الحال.

كنت أزوره حيا في بيته في طنجة، ولا أغيب عن تلك الزيارة طويلا، كما كان يزورني وأنا في فاس، ثم أخذ يزورني وأنا في مرتيل، وها أنا أنوي اليوم زيارة قبره وهو فقيد، لمجرد أن أقف على ذكراه، وهو وقوف يعني فيضا من الأشجان والعواطف والأفكار والذكريات.

أن تتبدل الزيارة من بيته وهو حي بزيارة أخرى لقبره، فتلك مفارقة صنعها

الموت ولم يصنعها أحد.

أنا من يكره حضور المآتم وزيارة القبور، إلا في حالات تفرض علي،ها أنا أذهب بكل رغبتيلزيارة قبر شكري، وفي هذا اليوم الماطر بالذات، وفي هذه الساعة من صباح هذا اليوم من شهر رمضان.

ليس لهذه الزيارة سوى معنى واحد، هو أنني أرغب في استرجاع ما مضى، وهو أمر صعب، إن لم يكن من قبيل المستحيل.

كان مُحَمَّد من النادرين الذين تصاحبت معهم، صحبة خالصة للمحبة، وخالصة للبراءة التي كنا نفتقدها.

إن كنت قد طويت سجل المحن التي عشتها في طفولتي فمحمد بقي إلى آخر حياته وهو يعيش جرحه العائلي، كما كان يجعلني جرحي العائلي معه، ولم يكن بإمكاننا أن نداوي ذلك الجرح إلا بقليل أو كثير من النسيان.

في الطريق، وزجاج السيارة يغبش بما يتدفق من مطر، فلا أرى شيئا في الطريق بوضوح، أحسست أنها وهي تسوق السيارة تحتاج إلى وضوح للرؤية، أما أنا فقد وجدت حاجتي في ذلك الغبش الذي يغبش الزجاج، فمن خلاله كنت أرى العديد من الصور، صور متتالية ومتلاحقة تحضر وكأنها تقصد أن تذهلني بحضورها وتتاليها وملاحقتها. كلها كانت تمثل لحظات عشتها مع مُحَمَّد، أو عاشها وحكاها لي، فكأني أمام شريط مصور، يصور الحياة التي عاشها مُحَمَّد شكري والحياة التي عشتها معه.

صورة، أو صور شكري، ولا أقصد صورة وجهه التي كانت تمثل أمامي، بل أقصد صورة حياة أو صورا من حياة شكري عاشها وعشتها معه.

لم تعرف صداقتنا أحقادا أو حسدا أو تبعية من الواحد منا للآخر، كما

يحدث بين بعض الناس. تخاصمنا عدة مرات خصومات صغيرة، ثم تصالحنا بالبساطة التي تخاصمنا بها. رغم اختلاف الطباع والتجارب والأفكار وتوجهات الحياة فقد كانت الأوقات التي نلتقي فيها تُغَيِّبُ الفوارق وتنسج العلاقات لصداقة حميمة.

سحر مغناطيسي لحكي مسترسل ومتبادل، كنا نمارسه، والواحد منا يحكي للآخر أغرب ما عاشه في حياته.

أغرب ما عاشه مُحَمَّد شكري لم يكتبه في سيرته الذاتية، التي ألح على تسميتها "سيرة روائية"، وأنا لن أحكيه لأحد، لأنه أشد إيلاما مما حكاه في سيرته.

أسترسل في أفكاري. أراها تسوق السيارة بحذر شديد. صورة المطر وهو يتهاطل على زجاج السيارة الأمامي، وبخار أنفاسنا في الداخل، صنعا لدي إمكانية للغياب، فأصبحت غائبا، كأني لا أوجد داخل السيارة، وإنما أمام شريط من الذكريات.

في المسافة القصيرة المتبقية لوصولنا إلى طنجة، حصل لي أمر غريب، فقد أخذت أقارن بين سيرته الذاتية التي كتبها وقرأتها وبين سيرته الذاتية التي حكاها لي، فلم أجد فرقا كبيرا إلا في الأمور التي هو نفسه قد مارس عليها نوعا من الرقابة الذاتية، فامتنع عن كتابتها.

لم يكن شكري، مثلي تماما، يقيم أية مفارقة بين الكتابة النسائية والكتابة الرجالية. كان يعتبر الكتابة تعبيرا عن الذات ومجتمع الذات. وكان يتصرف مع الآخرين بما يرضيه، فيحتج ويعارض، ويقبل أفكار الآخرين ويرفضها، أو يتدخل لتصحيحها من وجهة نظره. في كل تصرفاته، كان يقول لي: "أنا أتصرف بتلقائية، ولست نادما على أي تصرف أقوم به تجاه الآخرين".

كأن مُحَمَّد شكري لم يمت.

كأن صوته وحركاته وإغماضة عينيه تحضران أمامي الآن.

تداخلت تفاصيل المعيش الذي اشتركت فيه مع مُحَمَّد شكري وهي تحضر بقوة كما تحضر أبهاء طنجة في السبعينات ومدارجها وسحر أمكنتها يوم كنا فتية أغرارا نحب الحياة ونخرج من مكان لندخل مكانا آخر، نمرح ونتحدث في كل شيء وننفتح على الناس والحياة، كما تحضر وجوه الصحاب، ووجوه مثقفين وفنانين من طنجة أو عاشوا فيها.

ونحن على مقربة من طنجة أخذت أفكر في إقامتي بها لثلاثة أشهر متوالية، وما كنت أشعر به من فراغ وأنا أقضي بعض الأوقات في نفس الأماكن التي كنا نجول فيها أنا ومُحَمَّد. كنت أمر ب"مقهى الروكسي" الذي كان حانة من قبل، وب"ليسي رونيو"، قبل أن أصل إلى باب العمارة التي كان يسكن إحدى شققها، أتطلع بنظري إلى السطيحة فلا أرى تلك الأغراس التي تسمق إلى أن تبدو ظاهرة من الطريق. وهو باب العمارة نفسه. كان مُحَمَّد يقدم لي مفتاحه عندما أبيت عنده وأكون مسافرا في الصباح الباكر، فيطلب مني ألا أوقظه وأن أضع المفتاح في صندوقه البريدي.

خلال تلك الأشهر الثلاثة، كتبت روايتي: "امرأة من ماء"، واستحضرت فيها فضاءات طنجة، كما استحضرتها من قبل في "مغارات" و"ضحكة زرقاء" وأعمال أخرى.

أي فقدان عشته وأنا أقيم في طنجة خلال تلك الأشهر، لكوني لم أجد بها طعم الحياة الذي تذوقته أيام كنا أنا ومُحَمَّد نعيش مع الليليين والنهاريين. ثم أقمت في طنجة، وأصبحت أعيش الفقدان لكون شكري غائب عن مدينته ومراتعه وعن

حاسوبه وسطيحة بيته وحديقة حيواناته المنزلية، وعني، وعنك، وعنهم؟

وصلنا إلى مدخل"مقبرة المجاهدين" بالسيارة، وقد توقف المطر وبدأ الجو يصفو قليلا. عند باب المقبرة، اكتشفت أنها ليست هي المقبرة التي وارينا فيها شكري التراب. مع ذلك دخلناها. بدا لي أن المعالم ليست هي المعالم. حتى القبور لها معالمها. جزمت بأن قبر مُحَمَّد ليس هنا، ومع ذلك فقد تجولنا بين القبور. زوجان يسكنان قبرا واحدا وأخوان يسكنان قبرا واحدا، وهو أمر غريب، لم يسبق لي أن تصورت حدوثه، ولا أعرف رأي الفقهاء وأهل الشريعة فيه.

تراجعت وأنا أوقن أن قبر شكري ليس في هذه المقبرة. قصدت مكتبا إداريا يوجد عند باب المقبرة. وجدت به موظفا. سألته:

. هل يوجد هنا في هذه المقبرة، قبر مُحَمَّد شكري، الكاتب المغربي والعالمي؟

نظر إلي وقال:

. هذا الاسم أعرفه، كان يعيش في السوق الداخل. متى توفاه الله؟

أجبته:

. في العام الماضي وفي شهر رمضان، كما نحن اليوم في آخر أيام شهر رمضان.

قال لي:

. لدينا سجلات نحصر فيها الموتى وأماكن دفنهم في هذه المقبرة، لكني لا أعرف القراءة والكتابة لكي أعرف ما في تلك السجلات، وسيأتي بعد حين رجل سوف يطلع على الصحائف، بمساعدتكم، وسيرافقكم إلى القبر، على أن تدفعوا له أجره.

قلت لرفيقتي إن شكري ليس دفين هذه المقبرة بالتأكيد، فخرجنا من مقبرة المجاهدين وسألنا عن مقابر طنجة وعددها ومواقعها فبدونا لمن سألناهم كالغرباء عن الموتى وما نحن سوى غرباء في الحياة.

لما ذكر أحدهم اسم "مقبرة مرشان"تذكرت أنها هي. هي المقبرة التي دفن مُحَمَّد بتربتها.

وصلنا إليها.عند المدخل تأكدت من أنها المقبرة التي وارينا فيها جثمان مُحَمَّد التراب. بعد دخلت الباب وسرت خطوات وجدت قبره. ها هو.

(هذا قبر المرحوم

مُحَمَّد شكري

الروائي والكاتب العالمي).



قرأت ما كتب على الشاهدة. رأيت القبر مرشوشا بالماء وعلى طوله جريدة خضراء ما تزال يانعة. حسبت أحدا قد جاء لزيارته قبلي وهو من سقى القبر بماء الرحمة ووضع عليه الجريدة. اليوم هو الجمعة الأخير أو ما قبل الأخير من رمضان وربما يكون العيد غدا أو بعد غد، والوقت وقت ضحى وأصحاب مُحَمَّد لا

يستيقظون باكرا وأهله بعيدون عن طنجة، فمن يكون قد سبقني إلى الترحم على قبر مُحَّد فسقى القبر ووضع عليه الجريدة الخضراء؟

جاء من باعني حزمة من أغصان الريحان الذي تكثر أشجاره في "أشقار" فوضعتها على القبر. المقبرة فارغة من الأحياء وليس فيها سوى الأموات.

اليوم رمضاني والسماء تدمدم بالسحب. تذكرت أن مُحَّد شكري عندما كان قد زار باريس، أتيح له أن يزور قبر رامبو، وقد التقطوا له مع القبر صورة، هو من أطلعني عليها. لم أفكر في أن أبحث عمن يأخذ لي صورة مع القبر، فقد كنت أريد أن تأخذ لنا الصور وهو

أما ما كُتب على شاهدة قبره، فقد كان تمجيدا له في حياته، إذ قبل من كتبوا الشاهدة، أو من طلبوا ما ينبغي أن يُكتب عليها، أن تخرج شواهد القبور نفسها عن كلماتها وحروفها المعهودة، وأن تكتب لمحمد شكري ما يليق به من وصف جميل: "الروائي والكاتب العالمي".

كفكفت دموعي ثم دخلت في بكاء صامت على نفسي وعلى مُحَّد وعلى كل من عاشوا وماتوا من أجل الكتابة وحدها و(من أجل الخبز وحده).

خاتمة

هل يكفي أن يفيض الدمع على مُحَمَّد؟

وهل تكفي الكلمات لرثائه هو من كان يكره المراثي؟

أصحاب مُحَمَّد الأوفياء جللوه في كفنه وبقوا حيارى تجاه ذاكرة خصبة كان قد منحها لهم مُحَمَّد، كما بقوا حيارى تجاه طنجة التي غدت بدون مُحَمَّد، فها مواطنه في المقاهي والحانات، وها خطواته اليومية من بيته إلى البريد المركزي إلى السوق وإلى أول وآخر الأماكن التي كان يجول فيها. ليست ثمة خطوات والطريق يتذكر خطوات مُحَمَّد اليومية، وبرنامجه اليومي. يذهب مُحَمَّد ويبقى الطريق لعابرين آخرين ربما بعضهم من أصحابه، يسيرون في الطريق ولا طريق.

ثم ها هو الغصن يذوي وشمسه تندر نحو المغيب.

لو كان مدينة يقتحمها الغزاة لقاوم الغزاة، ولو كان أسدا جريحا لاختفى في عرينه إلى أن يُشفى من جراحه، ولو كان بحرا لوثوه لطهر نفسه بنفسه، لكنه جسد طالما تباهي مُحَمَّد بقوته وهو اليوم مصاب من الداخل.

أي كبرياء يمكن أن يواجه به الموت!

من الأقوى، أنا أو الموت؟

لاشك أن الموت هو الأقوى، وأن لا مجال للكبرياء حالما يأتي النذير مخبرا بأن الموت آت.

غير أن شكري، في اللحظات الأخيرة التي سبقت موته، كما أخبرني من عاشوها معه، لم يستسلم، ولم يضعف. كان غير قادر على الكلام، لكنه لم يعبأ

بأنه في لحظاته الأخيرة. وَهْمٌ جعله، بعد الاتصال هاتفيا بالمستشفى العسكري بالرباط، ليخبر طبيبه بأنه يعاني من آلام أشد من تلك التي كان يعاني منها، فخرج من شقته وهو يوصي فتحية بوصاياه المعهودة، عن الاهتمام بالبيت والرد على الهاتف الثابت. وقيل لي إنه قد أخذ معه مبلغ ألف درهم لتسديد نفقة سفره إلى الرباط. كان يأمل عودته إلى بيته، لكنه لم يعد، فقد اختطفه الموت.

هو نفسه، لم يكن يستطيع البرهنة على أن الموت لا يتعقبنا. كان لا يحب أن يسمع أن أحدا قد مات، من أصدقائنا الأدباء، فقد مات من قبله كثيرون.

لم يكن ينظر إلى الموت على أنه خلاص كبير من المحن التي نعيشها، ولم يكن يشتهيه، بل كان يكرهه، ولا يخافه، يحسبه ذلك العدو الذي نؤجل التفكير فيه وهو يتربص بنا في كل لحظة وحين.

تحية أخرى لذكراه، حيا وميتا.

الفهرس